

اقرأ

الشاعر العظيم بودلير



عبد الرحمن صدقي

دار المعارف بمط

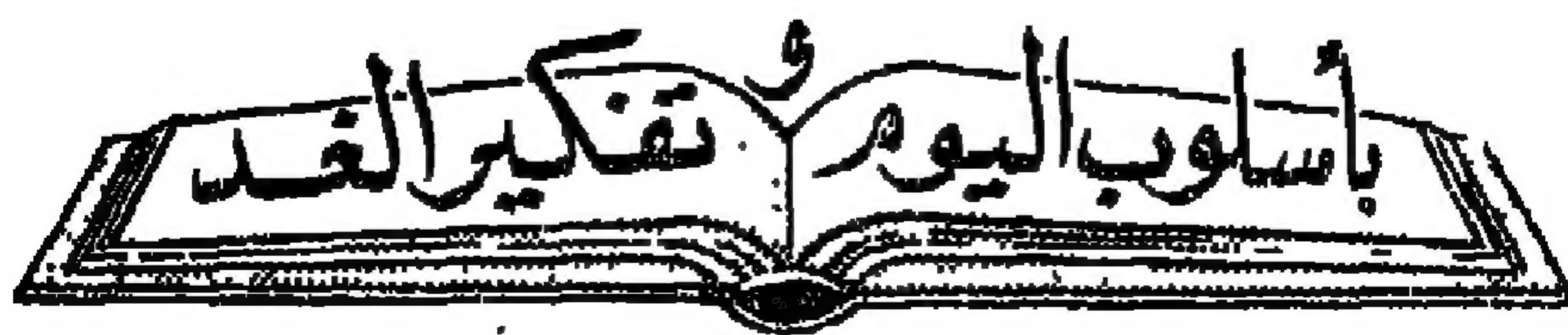


تصدر في أول كل شهر

شيس التحرير : عادل الغضبان



دار المعارف بمصر



عبد الرحمن صوفي

الشاعر الجيم بودلير

٧

اقرأ

دار المعارف بمط

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع



تصدير

ليست هذه بالترجمة الخالصة لحياة بودلير ، ولا هي بالدراسة النقدية الخالصة لشعره ، ولكنها الشيطان معاً . وإذا صح أن كان بين الفنانين من قام موضوع فنه بمعزل عن موضوع حياته ، فإن بودلير من ذلك في القطب المقابل والطرف النقيض . فالفن هنا وحياة الفنان كل لا يتجزأ . ولعل الرجل والشاعر لم يمتزجا في أحد امتزاجهما في بودلير . فلن نعرف الرجل حق معرفته إلا إذا تأملنا في شعره ، وإن نقدر الشاعر قدره ونفهم ما يقول على وجهه إلا إذا اطلعنا طلع حياته ووقفنا على خبره . ولا شك في أن هذا مطلب مزدوج . ولكنه كان على ازدواجه يكون هيناً سهلاً لو أننا بسبيل رجل غير بودلير وشاعر غير بودلير . فلقد شاعت الأقدار المعاكسة - في جملة ما شاعت في نكايته - أن يدرج الذاكرون له من أهل زمانه على رواية أشتات من الأقاويل عنه ، انتشرت له منها شهرة سيئة ، وانطبعت له في أوهام الناس صورة منكرة . وكان هو نفسه أحرص الجميع على تهجين سمعته وتشويه صورته ، وكان أوفرهم سهماً في إشاعة الشناعات عن سيرته ، والتهويل بنجايها دخيلته ، ولعاً منه بالتلبيس والإيهام ، والتذاذ باللعب بعقول السادة الجامدين ، وترويع دعتهم والعبث باحتشامهم وتزمتهم . وجاء جيل الشباب - وهم بطبعهم مدفوعون إلى الثورة - فاستطروا إعجاباً بهذه المواقف من (الشاعر الرجيم) ، وتمثلوه في صورة الشيطان المفسد ، خدن الشر وداعيته ، فارس الظلمات المستهتر بالأقداس والحرمات ، الناقم على الأرضين الساخر بالسموات . وكثر بينهم المقلدون لهذا المثال الذي نصبوه . وشأن المقلدين الذين لا يتخذهم قريحة ولا يرجعون إلى سليقة أن يترخصوا في المحاكاة فإذا هم يشبهون

عبقريةهم ولكن من جهة سوائه ومعاييه ، وهم يشتطون فيها ويغالون لأنها كل بضاعتهم ، فلا يلبث أن تلصق بظلمة شبحه ظلمات أشباحهم ويختلط على الناظر سماؤه بسماهم .

هذا بودلير الرجل من ناحية سيرته ، ولا يخلف عن ذلك شأن بودلير الشاعر في مجموعة أشعاره . فهو وإن كان يصدر فيها عن حسه ، ولا يخرج بها قط عن شخصه ومشاكل نفسه ، ومع ما التزمه فيها من صدق كصدق الاعتراف ، كان صاحب فن خلاق يتصرف في الشكل ، ويبدل في الوضع ، ويلفق الأزياء ، ويؤلف بين الأشئآت ، على موجب صنعته ، ومقتضى قلبه ، تحرياً للأثر الفني الذي يتوخاه .

فلا جرم تكون المهمة الملقاة على الكاتب ليست — كما قد رأى القارئ — بالمهمة اليسيرة التي لا كلفة فيها عليه ولا عناء ، إلا أنه قد أسلس أمرها وهون صعبها ذلك الفيض من المؤلفات التي تدور حول بودلير ، والتي ما برحت متلاحقة متواترة منذ القرن الماضي إلى وقتنا ، والتي نجد بين أصحابها من وقفوا حياتهم وقصروا همهم على تحرير أخباره ، كما توجه الآكثرون إلى تحليل أشعاره وسائر آثاره الأدبية . وذلك أصدق الشهادة على أن المستقبل له ، وعلى أنه كما قال عنه فكتور هيجو — وكأنما قال هذه المرة عن تلقين الغيب — الشاعر الذي سرت منه في الأدب انتفاضة جديدة .

عبد الرحمن صدقي

صوت من وراء القبر

قبل أن نكشف عن حياة بودلير بما فيها من عُرْف ونكر ، ونستجلى
في أغوارها السحيقة ما تنطوي عليه من سر ، وقبل أن نفتح ديوانه الموسوم
بـ (أزهار الشر) ونستنشئ منه الفاغم الحاد من غريب العطر ، نرى لزماً
علينا أن نتنحى ليكون بودلير البادئ ، فيقول كلمته من وراء القبر ^(١)
إلى القارئ :

أيها القارئ المطمئن الوداع
يا رجل الخير ، السليم الطوية ، القانع
اطرح من يدك هذا الكتاب
هذا الكتاب المستهتر الفاجع

* * *

إذا كنت لم تتلقن فنون البيان
على النقيب الماكر الشيطان
فاطرح كتابي ، فاست واعياً منه شيئاً
أو أئت معتقدي لوثة العقل والحبال

* * *

(١) هذه القصيدة من أشعاره المتأخرة ولم تظهر إلا في طبعة ديوانه التي
ظهرت بعد وفاته .

أما إذا استطاع طرفك — غير مفتون —
 أن يمعن في الأغوار
 ويغوص في اللجة إلى القرار
 إذا فاقرائى تتعلم محبتي

* * *

يا أيتها النفس المتطلعة
 أنت يا من تألمين في الوجود
 وتحومين باحثة عن فردوسك المفقود
 ارثي لي ! . . . وإلا عليك لعنتي

ميلاد شاعر

« أنا إنسان مريض شنيع الطباع ، والذنب في ذلك ذنب أبوى .
ومن جراهما يسرع البلى في نسجى ، وتنحل عراى ، وترث قواى .
ذلكم شأن من يولد من أم في السابعة والعشرين ، وأب طاعن في الثانية
والستين . فتأمل يا صاح . خمسة وثلاثون عاماً بين الاثنين . تقول إنك
تدرس علم البنية وتركيب الطبائع على كلودبرنار ، ألا فسائل أستاذك
عما يرى في الثمرة المتفحمة الحاصلة عن قران كهذا القران » .

هذه الإشارة الأليمة من خطاب كتبه بودلير سنة ١٨٦٤ إلى بعض
أصحابه ، وهو يطالعنا في هذه الألفاظ القلائل بمأساته الفاجعة ويزيد
في فجاجتها أن الضحية مدركة واعية لنوع الجناية وكنهها وأنها عميقة الشعور
بما يربطها بجنائها . وفيما يلي بسط لهذه الإشارة وتفصيل لحملها .

كانت كارولين ديفاييس (Caroline Dufays) أم الشاعر أقرب إلى
الملاحاة الجذابة منها إلى الجمال الرائع ، ريانة الصبا ، ولكنها رقيقة المزاج
غير عامرة البنية . وكانت لطيفة الشعور إلى حد يشبه أن يكون مرضاً ،
ثم هي يقظى الحس ، منشوبة العاطفة . وكان لكارولين بالأبهة وفاخر الزينة
ولع شديد كاد يكون مشغلةً ووسواساً مسلطاً . وذلك أنها في سنى حياتها
الأولى حرمت حتى وسائل الراحة وأسبابها . فقد تيممت صغيرة ، إذ مات
عنها أبوها الضابط الملكى الذى أبحته الثورة الفرنسية إلى الهجرة في جملة
من هاجروا إلى إنجلترا حيث كانت وفاته بعد سنوات قلائل من ميلادها
في لندن من أمها الإنجليزية . فكفلها صديق من أصدقائه الأولين من
رجال المحاماة الموسرين ، كانت له في ذلك الحين — عهد الإمبراطور

نابليون - دار كبيرة في باريس ومصطاف خلوى في الريف ، وكان من رزقه ومن بيته بمتسع ، فاتخذ الصغيرة اليتيمة رفيقة لكريماته ، ولا شك في أنها تقدر للرجل صنيعة وتعرف له حق نعمته ، إلا أنه لا شك أيضاً في ألمها الدخيل حين كانت تقابل بين حظها وحظهن ، وترى اقتناءهن لما يشأن من فاخر الثياب دون نظر إلى الكلفة ، وكيف يخطب ودهن أرشقي فتیان العصر من أجل المال المرصود لصداقهن ، على حين لا معول لها على غير وسامة طاعتها وميسم حسنها الطبيعي . ولما كانت سنو الثورة وحروب نابليون قد أفنت الكثير من عتاد المال ، وألحقت التلف والضياح بثروة معظم أصحاب الثراء ، فقد كان الشباب وقتئذ منصرفين - كانصرفهم اليوم - عن تحميل أنفسهم عبء الزوجة لا مال لها ، وكان الزواج إنما يتخذونه معواناً لهم على ما يسمونه - ونسميه اليوم - كفاح العيش . فلا غرو أن تبلغ كارولين ديفاييس الخامسة والعشرين من عمرها ولما يتقدم طالب زواج بها ، وقريباً ينقطع كل أمل لها في الزواج أياً كان . فهي غير مختارة ولا مطمع لمثلها في زواج بمن تحب : وإذا فلا معدى لها من أن تخفض جناحها وتطأطي من إشراف أحلامها وترضى بما تجد .

وكان بين الزوار الذين يختلفون على تلك الدار أرمل كهل هو فرانسوا بودلير (François Baudelaire) . شيخ ظريف الهيئة ناصع الشيب ، له شمائل أهل البلاط في العصر القديم وفرط أدبهم . ولعل ذلك كان بحكم اتصاله بأسرة الدوق شوازيل براسلين (Choiseul Praslin) مريباً لنجليه في عهد الملكية الأولى إلى قيام الثورة . وكان مقام هذه الأسرة النبيلة في قصر جميل له حديقة غناء تنحدر كالدرج حتى ضفة السين قبالة قصور التويلرى . وكان يقوم في طرف هذه الحديقة على مقربة من النهر منزل أنيق يزدان بالتحف الفنية من روائع المجموعة التي يقتنيها الدوق . وقد شاء الدوق أن يجعل إقامة الأستاذ المربي وتلميذه في هذا المنزل ،

وجعل له الحرية في أن يحيا فيه الحياة التي يرتاح لها كما لو كان هو رب البيت . فكانت له مركبته الخاصة به ، وخدمه المنصرفون لخدمته ، حاجاته مكفية ، ورغائبه مقضية ، وله فوق ذلك مائة وستون جنيهاً في العام ، وهي تعدل ضعفها أو ثلاثة أمثالها في وقتنا . فالرجل كان يحياها حياة السيد الأمر ، يأدب المآدب متى يشاء ، ويدعو من يشاء ، وكثيراً ما كان يدعو إليها الدوق والدوقة . فهو لم يكن قط عند القوم بموضع المأجور الممتن . وأبلغ من هذا في الدلالة على مروعة الرجل وشعوره بالكرامة أنه ، وقد ارتضى أن يبيعهم تعليمه ، لم يخطر له أن يدخل في الحساب رأيه ، فاحتفظ باستقلال تفكيره عنهم . فهو من أنصار الحرية ، تجمعته الصداقة بالعلماء من دعائها . ولعله لم يكره من الثورة حين شبت إلا شططها وفضائعها . بيد أننا نعود لنقرر أن اتصاله بهؤلاء السادة الاستقراطيين كان له من بعض الوجوه أثره ، ففي هذه البيئة نما عند فرانسوا بودلير تذوقه للترف وأبهة المظهر ، وقد أورث هذا الذوق مضاعف الفائدة لولده بودلير ، كما أنه أورثه حب الفنون ، فإن فرانسوا كان من هواها ، يقضى الجانب الكبير من أوقات فراغه في نقل ما يقتنيه الدوق من صور لمشاهير الفنانين ، بل كان يحلم بأن يكون في يوم من الأيام مصوراً ، ويعد التصوير عمله الذي خلق له ، وقد اتصلت أسباب المودة بينه وبين بعض أصحاب المواهب من المثاليين والرسامين في عصره . وكان يجيد الرسم بالقلم الملون وبالألوان المائية . وكانت موضوعاته المحببة هي الوجوه البشرية والأجسام العارية . ومهما يكن من نسبة هذه الأشكال إلى ربات الأساطير وبنات الخيال ، فإن هذا الإقبال منه — حتى في كبره — على تشكيل الأعطاف اللدان والقسمات الحسان شاهد على نزعة حسية ومزاج شهوى ، يكسوهما الخلق المهبذب والروح الفنية ، ومصادق لما يقال من أن حياته الجنسية كانت حتى الرابعة والأربعين حياة الفنان في

اضطرابها وانطلاقها ، وإن لم تكن كذلك حياته الاجتماعية .

وقد أثر عن فرانسوا بودلير وفاؤه لساتته وأصدقائه ، وتخليصه أموالهم ، واستنقاذه لأعناقهم ، وعدم إسفافه في عهد من العهود . ومع كل هذا فقد ساعده اتزانه على تجنب المزالق في سياق التقابلات السياسية من ملكية آل بوربون إلى مجالس الثورة ، ومن إمبراطورية نابليون إلى عودة الملكية . فخرج في آخر المطاف بمعاش إجليل ، فضلاً عما آل إليه في زواجه الأول من أراض وضياح . ومضت على ذلك بضع سنين ونيف الشيخ على الستين ، فإذا العزوبة تثقل عليه في تلك السن المتأخرة ، وإذا به متطلع في زيارته إلى تلك الصغيرة كارولين التي أصبحت اليوم ثمرة شبيهة طيبة . فهو يتبعها نظره وعطفه ، ويدعوها من حين إلى حين « يا ابنتي ! » ليطمئن له طائرها ويأمن جافلها ، ولعل تطاول الأيام بها من غير أمل في مخاطب قد هدى الشيخ إلى موضع ضعفها فأخذ يعمل على ترويضها . ولعله كان المرة بعد الأخرى يسألها مضيقاً وممازحاً : « خيراً يا فتاتي ! أما تزوجت بعد ؟ ألا فصدقيني ، سينتهي الأمر بنا إلى أن يتزوج أحدنا الآخر » ، وما كان ليفوت باقعة مثله أن يتحدثها عن أخبار ضيعته وأوصافها وعن موارده ومقدارها ، لتمثل الطمأنينة والدعة في كنفه . ثم هي لما تزل تذكر - وهي مأخوذة - أنه كان منذ سنوات يأتي إلى الزيارة في مركبة عليها طراز مرسوم ، وبين يديه التابع الوصيف بشعره الأبيض المستعار وشرائط الذهب على منكبيه ، وكيف كان التابع يظل واقفاً خلفه في العشاء قائماً على خدمته على عادة السادة في تلك الأيام . ولم تكن قد عرفت أن المركبة إنما هي كما تدل شاريتها مركبة مجلس الشيوخ الذي كان وقتئذ من كبار موظفيه الإداريين ، وأن التابع كان ساعي المجلس لتبليغ الدعوات عند الاقتضاء . هذه المظاهر كلها فعلت في نفس كارولين الساذجة فعلها ، وهي كما رأينا كسيرة الجناح مضغضعة القوى المعنوية ،

من أثر الملابس القاسية وظروفها غير المؤاتية . وكأننا بالشيخ وقد اغتم
مقدم الربيع ، وجعل يطوف معها في ممشى الحديقة ، وقد تبرجت
الطبيعة وأخذت حفل زينتها ، حتى سكر حسنها وفاضت بدواعي الشوق
نفسها المحرومة . فلما أن خطبها الشيخ أخيراً إلى عائلها لم تؤخذ على غرة
فلم ترع ولم تمتنع .

وقع هذا الزواج في التاسع من سبتمبر عام ١٨١٩ . ولحقت كارولين
بزوجها في داره العتيقة التي اتخذها منذ اعتزاله الوظيفة . وهي دار
متقدمة العهد مجددة ، ويفضي إليها من مدخل كبير مقوس ، ولا تزال
بها مخلفات من العمارة القديمة كالأبراج الصغيرة في أركان البنيان ، ثم
تلك الحديقة العميقة ذات الدوح المعمر ، وارفة الأفنان ، غاطة الظلال
يفوح منها في أيام الخريف المطيرة رائحة الطينة الحرة العتيقة .

وأما أثاث الدار فكان مثل الدار نفسها ، بعضه مما خلفته امرأته
الأولى ، وبعضه مجدد . على أن أظهر ما كان بالدار من زينة ذلك
الحفل من التصاوير بالألوان المائية والأصباغ المائية الصمغية . والأقلام
الملونة التي نقلها ، وطائفة من الرسوم المحفورة الحكيمة ، ونماذج من تماثيل
الأقدمين . فهي بالإجمال وقبل كل شيء دار فنان . وأكبر الظن أن كارولين
كانت تدرج منكسة الطرف من الحياء بين هذه الصور المتعرضة
المتجردة ، بين الزهرة ربة الجمال ، وأبولو رب الفنون وراقصات باخوس
وما إلى ذلك مما في الأساطير الوثنية من مظاهر لعبادة الحياة والجمال .
إلا أنه في وسط هذا الغمار من المرح الوثني كان لكارولين صورة من
الصور الدينية المسيحية علقها لتستزل بركتها وتأنس بها من وحشها .

وكان ضيوف فرانسوا من أحرار الفكر ، لا يتخرجون من تناول
الكنيسة ورجالها بسوء القول أمام الزوجة الشابة ، وكان يتعاضدها هذا الأمر

ويجرح عزتها ، ولكنها لم تكن لتجد من نفسها المرأة على مراجعتهم والاعتراض عليهم ، فكانت تجمد وتحتجز عنهم ، لا يضعف لها إيمان ولا تتزعزع عقيدة . وكذلك كان زوجها وأصحابه في السياسة أيضاً من أنصار الحرية ، لا يؤمنون بالملوك بحق إلهي ، وإن لم يذهبوا في الثورة مذهب المتطرفين . أما هي فكان هواها أجمع مع الملكية ، إذ ما من شك في أن والديها قد أفرعا أحلامها في المنى وهي صغيرة بما كانا يقصانه عليها من فظائع الثوار ، حتى صارت كلمة الشعب تحمل في صورة الأفواج من الهمج شاهري السيوف والحرايب يعجبون ويضجون في طلب الدماء .

بيد أن هذا كله لم يكن له شأن في الحياة الزوجية . فقد كانت حياة الزوجين وادعة هادئة ، ولولا تفاوت السن لأضفنا أنها كانت عندهما على السواء سعيدة هائلة . ولقد كان فرانسوا حفيها بها ، شديد التلطف معها ، خافض الجناح لها ، حريصاً على مرضاتها . ولم يزل بعد الزواج كما كان قبله ظريف المحاضرة ، جم التأديب ، ولم يتغير خطابه لها ، ولم يفكر قط في أن يخذلها عن سنه ، وما وراءه من ماض طويل ، فكانت إذا روت له خبراً يقول مقالة الشيخ الذي استوفت تجاربه وامتلأت كأس حياته : « هذا الذي تروينه - يا بني - يعيد إلى ذاكرتي كذا وكذا من أحداث العهد الحالي » ، ثم إنه لاشتغاله بها ، وشدة إقباله عليها كان طيفها يكاد يحجب عنه طيف « كلود القونس » ابنة من زواجه الأول وهو إذ ذاك في الرابعة عشرة من عمره . ولعل كارولين كانت تسد مسده لمقامها عند زوجها الشيخ مقام الزوجة والابنة معاً .

وكان القائم على تدبير المنزل خادمة فرانسوا في أيام العزوبة . وقد سلخت في خدمته سنوات طويلاً . فهي بحكم العادة تستبد بشئون البيت استبدادها الأول ، جادة مخلصه كأن الأمر لها ، ولا غرو تحس كارولين أحياناً أنها كالقاصر تحت كفالتها ، ولا تملك أحياناً بوادر غيرتها .

وكانت كارولين في حديثها مع زوجها تدعوه : « يا صديقي ! » -
 ولم يمض طویل وقت على زواجها بصديقها الشيخ حتى راعها أنها حملت ،
 فهي حين ارتضته زوجاً إنما استجابت لداعى العقل ولم تخطر لها الأمومة
 ببال .

وفي ظل وارف من الحنان المضاعف من هذا الأب الشيخ الفنان
 وهذه الأم الحية الوجدان ، عاش الطفل أيام طفولته التي لا ينساها في
 مثل نعيم الجنان .

عهد اللجنة الأولى

كان ميلاد الطفل في التاسع من إبريل ١٨٢١ واختير له اسم شارل بيير بودلير. وما نظن بالقارئ حاجة إلى الإطناب في وصف ما داخل الشيخ فرانسوا بودلير من السرور ، وما استطاره من الابتهاج ، وأخذته من هزة الطرب ، حين رزق ابناً بعد أن أربى على الستين . فهو شديد الاهتمام به ، يحمله في ذراعيه ، ويرعى خطاه الأولى ، ويقف به أمام الصور التي تزدان بها الجدران . فيتلقى الطفل عن البقع المبرقشة سحر الألوان ، ولعله كان حين يلقنه المفردات يعتمد إلى تقريبها بأن يرسم له ما تمثله من المحسوسات ، حتى تيقظت حواسه للأشكال وتكوين الأجسام ثم كانت بعد ذلك نزهتهما في رياض لكسمبرج وهو ممسك بجمع يده الناحلة المعروقة ، يد طفله الدقيقة الصغيرة ، وكلما جازا بتمثال من تماثيلها الكثيرة شرح له قصته العجيبة ، حتى نشط خياله الناشئ في وسط هذه الطبيعة الجميلة العامرة بأروع الأرباب وأجمل الرباط ، وعاش صباه الأول بين أساطير الوثنية المتفنتة البديعة. وهنا أيضاً درج الطفل « يلاعب الريح ويخاطب السحاب » في حجر الطبيعة :

« تلك الذئبة الممتلئة الصدر بالحنان اعميم »

« تشبع بالأفاويق من ثديها الأحوى جميع العالمين »

ولا يشك في أن الناظر إلى هذا الوالد وابنه كان يحسبهما جدا وحفيده فإن كفيهما المتعاقدتين يصلان القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، وبينهما تلك الشقة الواسعة من طوال الأعوام الجافلة بالأحداث الجسام . ولقد ادخر الطفل - فيما ادخر - ذكريات هذه الجولات مع أبيه وهو

ابن خمس سنين في رياض لكسمبرج . فكان حتى آخر أيامه يكثر من التحدث عنها إلى خلانه ويطيب له ترديد ما في مجالسه والإشارة إليها في شعره . وأما في البيت فكان ما يتلقاه الطفل من المشاعر أكثر تعقداً . فقد كان يجد نفسه أمام لغز غامض من نوع العلاقة بين هذه الشابة الناعمة في نضرة الحسن وميعة النضبا وهي أمه ، وبين هذا الشيخ الطاعن في السن الذي لم يبق له من سواد الشعر إلا حاجباه ، وهو أبوه .

وكان يتبلبل بخاطره وتضطرب حواسه من ذلك البريق يوجب في نظرة الشيخ إذا هي اتخذت زينتها وتحلت بأبهج حللها . وكذلك حين تدعو زوجها « يا صديقي » وتتصرف معه تصرف الارتباك والدلال معاً . ثم من ذا يكون هذا الفتى الطالب في معهد الحقوق الذي يقدمونه إلى شارل على أنه أخوه ، والذي تقل زيارته لهم عاماً بعد عام ، والذي يدعوها مرة « يا أمي » ومرة أخرى « يا سنيدي » على حسب أغراض الكلام ومقتضياته ! وكيف كانت أسارير الشيخ تنبسط لهذا الحديث حيناً وتنقبض له أحياناً .

فإذا كان الليل حملته الخادمة ما ربيت إلى غرفة نومه بعد أن يتلقى من أبيه مسحة على شعره ثم قبلة من أمه . ولكنه ما يكاد يستقر في الفراش حتى يطلب أمه ، ولا يغتمض له جفن حتى تعود إليه فتقبله ثانياً . وكانت الخادمة مع ما عرف عنها من غلظة الطبع تضمه عندئذ ضمها الشديدة وهي تتمم : « يا له من طفل عصبي ! »

هذه كانت حياة الطفل مع والديه . وظاهر منها أنسه بأبيه الذي لا خلاف في أنه أخذ عنه ميوله الفنية . وظاهر منها كذلك شدة شغفه بأمه الصبية التي رأينا تعقد حياتها النفسية قبل الزواج وبعده . كما أننا نلمس فيها جو المناقضات والمعميات والحوالج الخفية التي عاش فيها الطفل فنبهت ولا ريب فيه ملكة التطلع والملاحظة والتحليل التي تناهت به

إلى غايتها الأليمة في مستأنف عمره .

في هذه الأسرة الصغيرة ، في اليوم العاشر من شهر فبراير سنة ١٨٢٧ وقعت على البغثة مأساة . لقد خر الشيخ بودلير إلى جانب المصطفى ميتاً بالسكته من أثر انفجار في أوعية المخ الشعرية .

وكان شارل لم يستوف السادسة من عمره ، وقد بدأ في هذه السن يعرف لأبيه شدة التعلق به والعطف عليه ، فهو يبادلہ الشعور ، ويكن له من مشاعر الإجلال والمحبة البارة ما يشبه العبادة الحارة .

ونحن في غنى عن القول إن الطفل حزن على أبيه ، وصلى من أجله ، وردد كسائر الأطفال متعزياً أن أباه رجع إلى السماء . ثم كان من الطبيعي أن يجعل من بعده كل عزائه في أمه التي أصبحت كل شيء عنده ، كما كان هو كل شيء عندها . وهذه هي أمه اليوم تحتضنه أكثر من ذي قبل وتغمره بعطفها ، ثم هذه هي قبل أن تفارقه إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية لها تقتضي غيابها أسابيع ، لم تتمالك نفسها أن أسمعته - وهي تبكي - أعذب ما قدر له أن يسمعه من تحبيب ونجوى .

وفي أثناء هذه الغيبة تولته الخادمة العجوز مرييت ، فبالغت في العناية به ، والحذب عليه ، وأسرفت في تدليله ، ومتابعته على ما يريد . لقد ملكته أمره ، فلا عليه ألا يرعى حداً ، ولا يؤدي واجباً ولا يحفظ درساً ، وهو شأنه يجرى راكضاً على قدميه ، أو راكباً عجلته في عرصات الدار وحجراتها الواسعة المهجورة ، يتناول كل شيء وينظر في كل شيء ، ويفتح الأضابير المشحونة بالصور فينثرها على أرض الغرفة ، يتصفحها واحدة واحدة ، وهو كالنشوان ، وإنه ليكاد يذهل عن نفسه ، ويخرج عن حسه ، وهو يتأمل المجموعة المنقولة عن آثار مدينة هرقلية المهداة إلى أبيه من أوليائه الأولين ، والتي حرمت عليه أمه أن تمتد إليها يده ويقع عليها نظره ، لما تمثله من مناكر الأعياد والمراسم الوثنية .



مثال للجمال الكلاسيكي

بريشة الشاعر

طابت نفس شارل بهذه العيشة الطليقة ، فهو هاني سعيد ، فما هو إلا أن تعود إليه أمه فتبلغ سعادته منهاها ، وتستوفي غاية مداها ، وقد عادت الأم ، وكانت تخشى أن تموت بعيدة عن ولدها ، فتحول هذا الإشفاق منها على نفسها رقة له وحناناً عليه ، فضلاً عن أنه اليوم لا مهوى غيره لفؤادها ، فهو كل ما بقي لها . وكانت تقضى بعض أوقاتها معه في تعليمه اللغة الإنجليزية لغة أمها .

وبالنظر إلى ما صارت إليه مواردنا بعد موت زوجها ، انتقلت إلى دار صغيرة أقل كلفة ، وفي هذه الدار الصغيرة ، ذاق شارل النعيم صفوياً غير مرنق . فأمه اليوم تنظر إليه غير النظرة الأولى ، وتناجيه بصوت أشجى مما كان ، ولا تمل تقبيله وتدليله ، وهو قد استعذب منها هذا التدليل والتقبيل ، وتلقى متفتح الجوارح هذا الفيض المتوهج من هوى المرأة المكبوت . فاستغرق في هذا الجو العاطفي الذي انطبع أعمق انطباع في حسه المستوفز الباكر ، حتى ليدهش المتتبع لكتاباته من أنه لا يذكر هذا العهد (عهد حنان الأم) إلا كما يذكر العاشق مواقف عشقه ومعاهد صباهته ، متلهفاً على تلك الجنة الناضرة من صبرات طفولته ، حتى لنجدته بعد ثلاثين سنة — في خطاب له إلى أمه — يشير إلى تلك الأيام بقوله « تلك كانت أيام نعيمى » .

ولقد تكرر منه في مستأنف حياته الحديث عما كان يجده وهو طفل ، من لذة في ملامسة ثياب الحرير التي كانت ملبس أمه الدائم ، وفي مصافحة الفرو الوثير الذي كانت تؤثره ، وفي شميم مساحيق زينتها ، وشذا عطورها . على أنه ليس من مقتضى ذلك أن تكون هذه الحال حجة على بواذر الانتكاس في طبيعته ، ومثالا من الأمثلة على ما لم يفتأ يلوكه « فرويد » وأتباعه أصحاب مذهب التحليل النفسي في نظريتهم الرموز إليها بمركب أديب (Edipus Complex) . فالأمر هنا لا يعدو

أمر معظم الأطفال ذكوراً وإناثاً ، فإن زينة أمهم الحبيبة توقع في نفوسهم أول اهتزاز للجمال ، وأول إعجاب به ، وهم فيما يجدون من ذلك متفاوتون بقدر إحساسهم وأطواره ، وليس من شك في أن بودلير كان من الأطفال ذوي الإحساس الباكر الذي يعز مثاله ، ولا تجرى العادة بمثله .

ولا يمنعنا هذا من القول ، بأن ذلك اللعب من الأم بمشاعر وليدها ، وذلك الاستحثاث لعواطفه نحوها ، من الأمور التي كان لها في متصرفاته في مقبل الأيام أعمق الآثار والمعقبات ، وليس يخطئ من يرد إلى ذلك الكثير مما دخل على طبيعة إحساسه وما صار إليه تطور مزاجه .

أول العهد بالحجيم

على قدر السعادة التي كان الصبي شارل مستغرقاً فيها ، كان وقع الفجائية التي نزلت بساحته ، والنكبة التي انصبت على رأسه من حيث لم يحتسب .

استقرت مدام بودلير وولدها أخيراً في دار ثالثة بموجب الاقتصاد في النفقة . إلا أنها لجأت من حر ذلك الصيف إلى بيت أبيض صغير ولكنه هادئ في ريف باريس . وكان للبيت جنية يستتر بأغصانها تمثالان عريانان من الجص ، أحدهما لربة اليمساتين والثمار والآخر لربة الجمال والهو ، وعلى النوافذ أستار من الصوف الغليظ تضطرم في وهج الأصيل . والبيت الصغير مستكن بين الشجر كأنما هو عش لخلوة إلفين عاشقين . وكان الصبي أسعد ما يكون في هذه الخلوة بأمه ، مخبوساً كالمحب الغيور وإياها ، ممتزجة أنفاسه بأنفاسها ، يقضي الوقت متطلعاً في شتى الصور من مناظر طبيعية ومصورات جغرافية ، مسنداً ذقنه إلى راحتيه ، وإلى جانبه الأرملة الشابة تطرز وهي صامته مفكرة . إنها له .

وانقضى الصيف ورجعت مدام بودلير إلى دارها الأخيرة بباريس وقد اتفق أن كان يقطن إلى قريب من سكنها ضابط وسيم هو القومندان « أوبيك Aupick » ولا شك أنه جاز بها مرات في الطريق ، ووقعت في نفسه . فحياها ذات مرة فردت ولا شك بانحناءة لطيفة برأسها أو ابتسامة خفوة ، ثم اتصلت بينهما المعرفة . وبدأ القلق يساور شارل من زيارات الضيف الجديد ، ممشوق القامة في زيه العسكري ، متزن المشية ، تستقر عيناه الزرقاوان بالنظرة الطويلة الثابتة في عيني أمه . كَمَنَّ له عليها سلطان .

وكان «جاك أوبيك Jacques Aupick» يمت بعمق إلى الأرومة الإنجليزية من ناحية أمه . فتهياً لكارولين أن تبادله أحياناً بعض كلمات بالإنجليزية تفوت إدراك شارل وقتئذ . فهو يمتلئ من ذلك غيظاً ، ثم إنه يكاد لا يتعرف على أمه في محضر من هذا الضيف . فإن عاطفة جديدة تداخلها ، وتغير من هيئتها . فهي مع هذا الرجل غير ما كانت مع أبيه وغيرها معه .

وبالغ الضابط في ملاطفة الصبي ، ومحاستته ، وإظهار أجمل المودة له . وأطرى عند أمه ذكاءه وحسن فهمه . ولكن هيات . . . إنه يأنس فيه غريماً مزاحماً ، ونفسه تحدثه بأنه المغلوب على أمره ، وفي ذات يوم قالت الأرملة الشابة لابنها : « أنت الآن فتى كبير ، فكن عاقلاً كعهدي بك . إن من الأمور مالا تملك الأم إمضاءه على الوجه الأتم ، مهما يكن من حدبها على ابنها وسهرها عليه . وذلك لا لشيء إلا أنها امرأة . فأنت محتاج إلى رجل يأخذ بيدك ، يرشدك ويقوم على تعليمك ويهيئ لمستقبلك . أنت محتاج إلى أب آخر » . وانتفض الفتى فاستدركت « إلى صديق . . . ستدعو القومندان يا صديقي ، أليس كذلك ؟ تعاهدني ؟ وسوف يكون لك القومندان خير صديق » . قالت الأم هذا أو شيئاً قريباً منه . فلم ينقد شيء إلى موضع الاقتناع من ابنها . فللصغار أحياناً إحساس غامض بحقائق الحب . فهو يحس أنها استجابت للضابط لأنها تحبه .

وفي الثامن من نوفمبر ١٨٢٨ ، أي بعد انقضاء ثمانية عشر شهراً على وفاة أبيه ، عقد زواج أمه الشابة على الضابط الشاب جاك أوبيك ، فالصبي مهتاج ثائر النفس . لقد خانته المرأة التي أحبها . لقد خانته . وهو غيران ، غيران تأكله الغيرة من القومندان . وليس في هذا التعبير مبالغة . فإنه ليروى — فيما رواه من ذكريات — أنه في ليلة العرس نفسها استولى على مفتاح الحجرة المعدة للعروسين ، ومضى إلى حوض في بعض

المتنزعات المجاورة ، فألقى فيه بالمفتاح ، وهو يجد في قلبه برد التشقى إذ يتمثل الحداد يستدعونه ليحتال على فتح الباب ، والزوج المحب إذا ذهب الصبر ملهوف ، والزوجة ممتعضة مهمومة . . .

ولا يبعد أن تكون هذه الواقعة غير صحيحة ، ولكنها كانت على الأقل من خواطره وأوهامه . فهي على كل حال مرآة صادقة للألم الذي كان يحز في نفسه ، ويلعج فؤاده ، ويمزق حشاه ليلة الحادث . ويخطئ من يحسبه عرضاً يزول . إنه كان خطب الحياة عنده . فلم يعرف شارل بعده طعم الهناهة . لقد عرفنا الصبي شارل من قبل حساساً عصبياً مشبوب العاطفة . وهو اليوم ذلك الصبي النفور المستريب ، الذي لا يطمئن إلى أحد ، القليل الكلام الطويل الصمت ، ذو الوسائس والبدوات . ومن الصبيان من يكون ذا شخصية غاشمة لا يطيق أن يرى نفسه مهملاً أو مزحوماً بشريك ، فلا بد له من الاستحواذ على من حوله والاستئثار باهتمامهم والتملك وحده على عقولهم وقلوبهم . فليس الذين يحبهم إضافة زائدة عليه ، بل هم جزء لا ينقسم من كيانه ، ومن هنا يأتي كثير من ثوراته وآلامه . لم يكن الصبي يتوقع أن يشاركه أحد في أمه بعد وفاة أبيه . فلما وقع ما لم يكن يتوقعه ، وجاءه شريك فيها وأى شريك ، انطوت تلك النفس الصغيرة الغريزة على ما يشبه خيبة الرجاء في النساء ، فضلاً عن الشعور بالحزاة والنفور من ذلك الرجل ، ذلك المزاحم الغريم الذي غلبه على أمه ، وصرفها عن ولدها حتى كادت — فيما يصوره له وهمه — تؤثر على وجود ولدها عذمه . . .

والقارئ يجد لا محالة صدى هذا الشعور المكبوت في مفتتح ديوان بودلير « أزهار الشر » في القصيدة الأولى التي تصف موقف الأم من ميلاد ولدها الشاعر ، تحت هذا العنوان الساخر: مباركة المولود Bénédiction

« لما حم القضاة الذي لا راد لحكمه .

« وخرج الشاعر إلى هذه الدنيا العانية الكأية برغمه
 « ريعت أمه ، وأخرجها السخط عن طبيعتها .
 فلوحت للسماء بقبضتها ، والسماء راثية لنكبتها » .
 « آه ، ليتني كنت قد ولدت وكرأ كاملاً من الحيات
 ولم أكن والدة هذا المسخ دون سائر الوالدات ،
 ملعونة ، ملعونة بما كان فيها من متاع عابر ،
 تلك الليلة التي فيها حماة بطى العاقر .
 بمن كان ميلاده كالتقصاص منى
 تكفيراً عن أكبر الكبائر .

* * *

يا رب ! ما دمت قد اخترتني من بين سائر النساء
 لأكون لزوجي الحزين مجلبة متاعب واشعثزاز .
 وما دمت لم أستطع أن أرمي في طيب النار .
 بهذا الوليد المسخ الزنيم ، كرسالة حب قديم .
 فإن هذه النعمة التي ابتليتني بها .
 سوف أصبها مضاعفة على هذا اللعين الذي كان أدواتها
 سأقصف عود هذه الشجرة البغيضة .
 حتى لا تطلع براعمها المريضة .

في مثل هذا الموقف العصيب ، ماذا عسى كان يملك فعله هذا الوليد ،
 إلا أن يمثّل ، أو - على الأصح - يظهر الامتثال لزوج أمه ، شأن
 العاجز المغلوب على أمره .



الصبي وزوج أمه

ولم يلبث القومندان أوبيك أن استدعى في مارس ١٨٣٠ - في
أواخر عهد الملك شارل العاشر - فيمن استدعوا للحملة الفرنسية على
الجزائر ، فبقي بعيداً عن زوجته بعض الوقت . وفي أثناء غيبة الزوج في
حصار قلعة الداى حسين ، انفرد شارل بأمه ، إنها لا شك كانت تستحى
في محضر زوجها الثانى أن تلاطف ثمرة زواجها الأول ، أما الآن فهما
وحدهما . لقد عادت كما كانت ، له وحده .

لكن ، هيات ! فاقصد حُرِّم آخر الدهر من اشتغالها به وتدلِيلها له .
فهذه هى موزعة البال ، مستوحشة إلى الغائب ، تتبعه نفسها ويهفو في
أثره قلبها ، ولم يفت الصبي أنها أقل انصرافاً إلى الزينة . لقد تغيرت الحال
فإن أمه لا تطلب الزينة لذاتها ، وإنما لذلك الرجل تتصنع وتتجمل .
وليس أبلى في الدلالة على ما كان لتبرجها للرجل من لدغة غيرة في نفس
الصبي لارقية لسمها ، ومن الحزاة التى لا تفتأ نارها ، والاستنكار المر
الذى لم يخفف منه تعاقب السنين وكرها . . . من تلك الأبيات في قصيدة
له نظمها بعد سنين عديدة :

« إني لأتمثل أملك ، يا وليد هذا العصر الحسيى ، القليل
الخير .

« أتمثلها في خرصها على إصباح ما أفسد الدهر .
« عما كفة على مرآتها تحكم الطلاء الأبيض على صدرها .
« ذلك البصير الذى أرضعك » .

والمقطوعة كما نرى ظاهرة المرارة ، فاضحة التنديد . ولا شك في أنه
استشعر الحجل منها ، لأنه لم ينشرها حتى عام ١٨٦٢ ، وكان نشره لها في
إحدى المجلات حين أعوزه ما ينشر ، وألحت عليه الحاجة إلى بعض
المال . ولقد كان بودلير يوافي أمه بنسخة من كل ما يؤلفه ، ولكنه أخفى عنها

المجلة التي نشرت هذه المقطوعة . ولما أن جمع شعره لم يفكر في تخصيصها ديوانه ، وذلك ولا شك احتراماً لأمه التي ما برح - على غيرته وحزازته - يؤثرها ويحبها الحب كله ، ويرى فيها مثال المرأة التي كان يتطلع إليها ويودها لنفسه .

طالب علم

وأيا كانت الحال ، فإن الضابط أوبيك لم تطل غيبته ، فما كادت تنقضي بضعة شهور حتى عاد إلى زوجته ، وقد رفعت رتبته إلى كولونيل ، وجعل مقره في مدينة ليون ، فاستدعى ذلك نروح الأسرة من باريس إلى تلك المدينة التجارية الصناعية العظيمة التي ينجم عليها الضباب ودخان الفحم ، والتي لم تلبث في عهد الملك البورجوازي لويس فيليب أن أخذت تكثر فيها إضرابات العمال وما تجره في الحين بعد الحين من الفتن والمصادمات ، فساهمت في القضاء الأخير على الملكية بعد سنوات .

... وكان شارل بودلير قد بلغ الحادية عشرة وقتئذ (عام ١٨٣٢) ، وحل أوان دخوله المدرسة ليتلقى العلوم المقررة بعد أن أخذ طرفاً من المبادئ الأولية على أبيه في حياته ، واستأنف بعضها على أمه في أوقات قلائل غير وافية منذ زواجها بعد ثماته .

... فلا يجرم ، يتخذ زوج أمه قراره في هذا الشأن ، فلم يكدر يستقر في ليون حتى أسلم الفتى إلى « بنسيون ديورم » تمهيداً لإدخاله المعهد في أول فرصة . وفي العام التالي ألحقه بالقسم الداخلي بالمعهد . وهنا رانت على نفس الصبي ظلال من الأسى مظلمة ثقيلة ، واستبدت به — على حد قوله — الشعور بأنه « مقضى » عليه أن يعيش مستوحداً مقطوعاً عن أهله طول دهره .

وكانت المدارس منذ عهد نابليون الأول تجري على نظام شبه عسكري ، غير منظور فيها إلى توفير أسباب الراحة ، ثم تجاوز الأمر إلى عدم استيفاء النظافة ، وكانوا يأخذون النشء بالشدة ، ويوقعون بهم العقاب الجسدي لأدنى مخالفة . والشباب بما فيه من طبيعة الجذل

وسلامة العصب قد يكون له جلد على هذه المكاره . ولكن شارل كان على غير هذه الحال عصبيا سريع الغضب ساهر النعمة ثم هو يتساءل : ما باله أودع القسم الداخلى من المعهد ؟ وهذا مقام أمه غير بعيد من المعهد ، هذا المعهد الكريه الذى يسام فيه خطة لا تقل صرامتها عما يؤخذ به الجندى الثكنة . يهب من الفراش على قرع الطبل فى الخامسة والنصف ولم يستوف نومه ، وعليه أن يتم الاغتسال ويزيل عنه النسخ باليسير من الماء ، وفى مثل طرفة عين . ثم إلى الدرس ، فإذا أخطأ - وهو لا بد منخطئ - فلا تسلم يده الخصرة المتورمة فى الشتاء القارس من ضربات العريف بمقرعة الجلد العريضة الغليظة .

وسبب هذا البلاء كله أوبيك زوج أمه . فهو يزداد كراهة لهذا الرجل كل يوم . وما من شك فى أن أوبيك لم يكن منطويا للفتى على النيات السيئة التى يدينه بها . وكل ما فى الأمر أن أوبيك جندى يؤمن بما فى التأديب وترويض الطباع من نفع وإحسان . ولا يبعد أنه كان جانحا إلى محبته بادئ ذى بدء . وعلى كل حال فقد كان شديد اليقين بأنه يعمل ما فيه الصالح لابن زوجته ، وأن هذه هى الخطة القويمة لتربية النشء . وأنى لأوبيك أو لغيره أن يدرك أنه بإزاء نابغة يخرج على المؤلف ويشذ عن القاعدة . وفوق هذا فإن أوبيك بعيد بطبعه عن فهم أمزجة الفنانين وتقدير هذا النوع من النبوغ .

وكان شارل يحاول التنفيس عن نفسه ، والتشاغل عما يرين على صدره ، ويأخذ بكظمه من شعور بإهمال أهله . فهو يتضارب وزملاءه ويتشاحن مع أساتذته ، وفيما بين هذا وذلك تخيم عليه كآبة ثقيلة الوطأة . والقارى لخطاباته فى ذلك الحين يجد فيها استرسالا وذلاقة لسان ، وسخرية مازحة وطلاقة وخلو بال . وهذا كله ظاهر يخالف الباطن . وسبب ذلك ما طبع عليه بودلير من كبرياء وعزة نفس . فليذكر قراء بودلير ذلك جيدا ،

وليدخلوه في حسابهم ، وإلا خدعهم عن نفسه . وليفطنوا إلى ما في تضاعيف لفظه ، ولا يفوتهم ما بين السطور ، بل ليذهبوا إلى حد السماح له أحياناً بأن يكون مفهوم كلامه عكس منطوقه .

ولم يظهر بودلير نجابة إلا في الترجمة اللاتينية واليونانية وفي الرسم ، ولم يخل من اهتمام بالتاريخ الطبيعي . ولكنه كان في الحملة كسولاً ، شارد الفكر ، أو على الأقل متفاوت الانتباه لما يلقى من الدروس ، لا قدرة له على حصر ذهنه في موضوع يفرض عليه فرضاً ولا يكون له فيه اختيار .

وكانت مدينة ليون بغیصة إليه . فهي عنده كلحاء عبراء مرحومة للفضاء بمداخلن أفرانها وأبراج كنائسها ، مقففة من الزمهرير لقيامها عند ملتقى نهري الرون والساوون . فهو قد مل بها الإقامة وأضتته السامة . وفي هذه الأثناء قامت في ليون سنة ١٨٣٤ ثورة العمال ، ونصب الثوار المتاريس في وجه العسكر . وكان الفتى يسمع تكتكة الرصاص من بعيد في هذا الليل ، وهو ورفاقه في مضاجعهم بقاعة النوم . ولا شك في أن الفتى كان يتوقع في وهمه أن يصاب أوبيك في هذا الشغب ، ويتنظر محموراً من الفرح أن يأتي الصباح بخبر مصرعه .

وأعقب ذلك أن نقل الكولونيل أوبيك إلى هيئة أركان الحرب في باريس سنة ١٨٣٦ جزاء له على حسن بلائه . وكان شارل حين قدم باريس معه قد استكمل الخامسة عشرة من عمره . وهنا أسلمه زوج أمه

إلى « معهد لويس لجراند Collège Louis-Le-Grand »

ويدلنا على مبلغ ما كان يعانيه الفتى أن عينيه لم يعد لهما ذلك البريق ، وكان يرى الناظر إليه صدراً ضيق الأضلاع فوقه رقبة معروقة ، يعاوها رأس ضخيم — مثل هامة الأجنة — فيه معنى شيطاني وإلهي معاً ، ويجالده شعر أسود ، من تحته وجه شاحب . قال الكولونيل لناظر المعهد وهو

يقدم إليه شارل : « سيدى ، إليك هدية أتحنفك بها - إليك تلميذاً يشرف به معهدك » .

والحق أن هذا الرجل المتشدد لم يكن بالمغلق الحس بحيث لا يتوسم ما فى الفتى من ذكاء . فهو عارف حق المعرفة لنباهة عقله ، وإن كان قد غم عليه فهم نفسه . ولا نعى بذلك قيام مشاركة عقلية بينهما ، فإن عقليهما أفقان لا يلتقيان . وإنما نعى أن الكولونيل كان يأنس فى الفتى نصجاً باكراً ، ومواهب عقلية نادرة . ولعل فى بعض الجوائز فى الشعر اللاتينى والترجمة اللاتينية التى نالها الفتى ما ثبت يقينه فيه ، فأخذ يعقد عليه من الآمال ما يرضاه ويبنى له مستقبلاً على هواه .

ثم إن شارل لم يكن ليناصب أوبيك ويكابره مجاهراً ، علماً منه بضعفه وقلة حوله . فهو كاظم غيظه ، ممسك على ما فى نفسه حتى إذا خلا إلى أمه نفس عن صدره ببوار من السخرية .

[ويؤخذ من كلام رفاقه أنه كان فى طبعه عرام وحدة ، وأنه كان متبجحاً متصلاً ، مهوساً متهوراً . بيد أن أصحاب الفراسة منهم فطنوا إلى أن فى قرارة نفسه التكبر والاستخفاف . ويلفت النظر من شهادة مدرسيه كلام معلم التاريخ عما كان ظاهراً من سوء إقباله على هذه المادة وكراهته لها ، وما كان يبدو من اقتناعه بأن التاريخ شئ ليس وراءه طائل ولا فائدة منه . ثم قول معلم البلاغة إنه كان لطيف الفهم ، ولكنه غير جاد ، وإن عنده ملكة الإبداع والاختراع حين يريد ، وليس عنده ما يجب من الرصانة والأناة للبحوث الشاقة الجليلة ، ثم إنه سريع الخاطر ، بارع البادرة مع شئ من فساد الذوق .

وكان يقابل بالزراية البالغة بعض الأفكار المقررة والأحكام اليقينية يرددها أصحابها بلهجة قاطعة موقرة ، ولم يكن شئ ينشط له ويستخفه إلا الشعر . وكان يورد فى كل مناسبة شعراً للشاعرين فكتور هيجو وتيوفيل

جوتيه ، إلا أن هناك ديوان شعر كان يقرؤه في الخفاء ، ولا يفضي إلى إنسان بأثره في نفسه وموقعه من حسه . وذلك ديوان سنت بيف . وقد جاء على لسانه بعد سنين قوله : « كان سنت بيف آفتى » . وينصرف هذا إلى شعر سنت بيف وإلى نثره كذلك . فإن الفتى المراهق أسكرته منه قصة (اللذة) التي روى فيها المؤلف قصة حياته الغرامية . ومعنى هذا أن بودلير الشاب كان غير منساق مع الذوق العام وإن تظاهر بذلك لأقرانه ، وأنه كان يلتمس فناً جديداً يرتاض به ويعمل على حذقه .

وقضى بودلير حياته المدرسية كما رأينا بعيداً عن التأثير بمن حوله ، فهو يكاتم الجميع معظم أمره ، ويخدعهم عن حقيقة سره . وكذلك كان طوال حياته ، فلم يحب أحداً إلى حد نسيان نفسه . وما كان له قط أصدقاء ، بل رفاق ، وأما أساتذته فلم يجد لهم غير الكراهة ، ولم يكن لواحد منهم تسلط عليه ، ولا لتعليمهم فضل في تنشئته ، وإنما نشأ وحده وتخرج على نفسه .

وقد قرأ بودلير في هذه السن إلى جانب قصة (اللذة) قصصاً أخرى لا يليق بالصغار قراءتها نذكر منها (الراهبة) للكاتب الفيلسوف ديدرو ، وكانت قصص العشق هذه تستهويه بقدر ما يكون فيها من هول الإثم والاجترار على المحرمات وتعدى الحدود . فهنا ، حيث عذاب النفس واليأس القاتل واللعنة الأبدية ، تهتز مشاعر الفتى اهتزازاً لا يعدله إلا اهتزازها لقراءة خواطر « بسكال » الروحية التي كتبها في سنوات مرضه الأخير وهو يغالب حيرة عقله في أمور الدين ويتوجه إلى الله بقلبه مستلهماً الإيمان مستفتحاً أبواب اللانهاية ، وهو مرتجف الحس فائض النفس .

وما برح هذان هما القطبين اللذين دارت بينهما حياة بودلير حتى آخر عمره وصدر عنهما شعوره وشعره .

وفي سنة ١٨٣٧ اصطاحبه أوبيك وأمه إلى رحلة للتنزه في جبال البرينيه ، فعاد منها الفتى بقصيدة، عنوانها «التنافر» (Incompatibilité) وصف فيها منظر هذه الجبال الجرداء، البعيدة عن حركة العمران وعن خضرة الزروع، وترجم فيها عما وجدته من شعور بالوحشة والوحدة . ولعل في عنوانها إشارة إلى عدم الامتزاج في الدوق والمشرّب بينه وبين صاحب الرأي في الرحلة وهو زوج أمه .

فالفتي بودلير آخذ في نظم القريض . ولكن من المحقق أنه لم يكن يطلع الضابط على شعره ، فهو يعلم أنه أمر لا يسره . ولعله لم يكن يطلع عليه أمه ، فإنها وهي المتورعة المثيية كانت تجفل من ميل ابنها الأدبية . فإذا خطر له أن يحادثها حديث الأدب، أخذت عليه السبيل وعدت على الأمر في غير احتفال ، بحسبانها جهالة كغيرها من جهالات صباه ، لا تلبث أن تنقضي حين يدرك رشده .

ثم هي لا تملك نفسها من التعجب لهذا الولد العجيب في حنانه وفي قسوته . أما كان الأخرى به أن يطيب نفساً ويقر عيناً ، ويحمد الأيام أن قيضت له رجلاً مثل أوبيك — رجلاً محمود السمائل حر الحلال ، قادراً على تحقيق مصلحته ، ودفعه في طريق المناصب ، وترشيحه للمراتب الاجتماعية الرفيعة . إنها لتأذى وتألم حين ترى ابنها يتهاون ساخرًا — في ساعات ضيقه واحتياج عصبه — من صورة المستقبل البهي الزاهر الذي يرسمونه له . وكانت الحال تتخرج حين يند الفتى عما يتكلف لزواج أمه من موقف الابن المطيع ، فينبس بكلمة تفتح عيني الرجل على فرجة من قرار هذه النفس المضطربة . هنا تجهش مدام أوبيك وتغشاها نوبة عصبية . ولا تسل عما أصاب المسكينة حين طرد شارل من معهد لويز بلراندي في إبريل سنة ١٨٣٩ . فقد تلقى أوبيك تبليغاً من الناظر بطرد الفتى . وأما علة الطرد فقد خلت منها سجلات المدرسة . وقد يكون ما أتاه الفتى

كبيرة من الكبائر . ولكنه لا شك أيضاً في أن لنقمة الأساتذة عليه دخلاً فيما رتبوه على ذنبه . واشتد أوبيك على شارل . وفي هذه المرة طأطأ الفتي من إشرافه ونكس رأسه . إن طرده من المعهد رج كيانه وزلزل أركانه ، لقد تملكه الفرع مما أثاره . فهو يكتب إلى أمه أنه « يخشى ألا يجد سبيلاً إلى التعليم » . لقد زایلته ثقته بنفسه وساورته المخاوف من الحياة . أما أوبيك فقد بلغ من غضبه أن جرى على لسانه ذكر إصلاحية الأحداث . ولكن الفتي نادم أشد الندم ، مستغفر من ذنبه ، ملتمس الصفح والغفران . ودخلت الأم متشفعة ، وهى عند زوجها مقبولة الشفاعة . فعدل إلى إنظاره واعتمد رأياها في إمهاله فترة ، والإملاء له في الفرصة . وكان أن عهد به إلى أستاذ معيد للفلسفة يقيم عنده ويتجهز تحت إرشاده ورهن إشرافه لامتحان البكالوريا . وكانت الأسرة مما تعافه نفس بودلير . فهى أسرة يسودها العقل والمحبة والاتزان ، لا يستطيعها غضب ولا يغلو بها طرب . وهو لذلك ضيق بهم ، كاره لمقامه بينهم ، شديد الملل . ولكنه مع ذلك أقبل على العمل وتقدم للامتحان ونجح . فكان أول همه أن طير الخبر إلى زوج أمه . وبهذه المناسبة هنا بما قرأ عنه في الصحف عن ترقيته إلى رتبة جنرال .

وعاد شارل إلى المنزل ، ولكنه لم يكذبضع فيه قدمه ، حتى قامت من جديد مسألة المستقبل الذى يرشحه له أوبيك . فإن أوبيك يعلل النفس بأن يدخله السلك السياسى وأن يراه ذات يوم من رجالاته . ولكن الفتي كان مصمماً على خلافه ، فقد أجمع عزمه على ألا يطاوع وحيّاً غير وحي شيطانه . فأعلن أنه اختار لنفسه — دون سائر المهن القويمة المكيّنة — مهنة الأدب وإن تكن غير مضمونة ولا مأمونة . فلما أعلن شارل رغبته في الاشتغال بصناعة الأدب ، كانت صدمة لأوبيك ، بما فيها من تخيب أمله ومخالفة عزمه . ولم يبق عنده شك في حماقة الفتي وجنونه ،

فهاج هائج وثار به حتى رماه بالفسولة والصعلكة . ونسى الفتى نفسه أثناء المشادة ولم يحكم ضبط أعصابه فقامت بينهما جلبة ، وبلغت الحدة بزواج أمه أن تجاوز - في قول بعضهم - إلى حد التهجم باليد على الفتى . وتدخلت الأم المسكينة كالعادة . ولزمت الفراش من أثر ذلك أياماً . وأخيراً تشفعت الأم لابنها ونجحت في إقناع زوجها بإفراح الوقت للفتى حتى يفكر . لقد عاش ابنها السنين الطوال في دور التعليم رهن التضييق والنظام الدقيق العقيم ، فلعله في حاجة للاستجمام والترويح عن النفس . ثم هو بالغ عن قريب سن الرشد ، والأحرى أن تطلق له بعض الحرية قبل أن يصبح صاحب التصرف المطلق في ماله ، وفي مستقبل حاله وما له .

فأرسله أوبيك يقضى فترة في باريس في نزل اختاره .

فى باريس

كان التزل الذى اختاروه للشباب بودلير مما يتزل فيه الفتيان القادمون من الريف للدراسة فى باريس ، والمقصود به أن يشعروهم أنهم فى مثل أسرهم وإن يكن التشبيه فى الواقع جد بعيد وفيه تجاوز كبير . ولم تكن هذه الدور بالموضع التزه المريح . ولكن ماذا يعنى الشاب بودلير من نزهة المكان وراحة المثوى ومذاق الطعام ؟ بل ماذا يعنيه من شمائل السكان أنفسهم ! إن الشبان فى الثامنة عشرة ليهون عليهم ذلك ، إذا هم نعموا بالحرية . فلا عجب ألا يشتكى الفتى بودلير من وضاعة غرفته - وإنه لقليل المقام فيها ، ولا من تفاهة الطعام - وإن أغلب عشائه فى الخارج وكثيراً ما يلهو عن عشائه . هذه أمور لا وزن لها اليوم عنده . إنه فى أحضان باريس ، المدينة ذات الوجوه المتعددة ، المدينة التى فيها كل شىء حتى القبح ينقلب سحراً ، ثم إنه يستطيع أن يكون هو على حقيقته . يستطيع أن يفرج عما ينطوى عليه شخصه من شخوص عدة ، أن يكون الساعة غير ما كان قبلها وغير ما يكون بعدها ، أن يكون هذا الشىء ويكون نقيضه أو يكونهما معاً - فذلك شأن الشاعر وقصارى حظه دون غيره .

لقد كانت أمه حسنة الإيمان متدينة ، وكان زوج أمه يحرص على حضور القداس . ولعل ذلك ما أحدث فى نفس بودلير عكس الأثر . فما سبيل الناظم المتسخط إلا المخالفة . فإلى أين إذاً يمضى هذا الفتى المنطوى على نفسه ، السابح فى الأحلام ، المترفع المتأنق ؟ إن الشباب ملء إهابه ، والمال متهى فى وطابه ، وله حساب مفتوح عند الحائلك وصاحب القبعات وبائع الأحذية . لا تراه إلا قشيب الثياب ،

معطر الأردن ، محتفلاً بهيئته وزينته . وبالحملة هو متحذلق من متحذلة السميت والهندام . وكان قد اتصلت الأسباب بينه وبين شباب الأدباء في الحى اللاتينى ، وانضاف به إلى مقاهى الضفة اليسرى عميل طارئ وضيف جديد سرعان ما صار معروفاً ملحوظاً لفرط أناقته وبسط يده بالعطاء .

وإلى هنا لا بأس ولا حرج . ولكنه لم يقف هنا . فثمة النساء . ولعلنا كنا نقول إن شأنه فى هذا أيضاً شأن سائر الفتيان لولا أن شارل بودلير اتجه إلى شر النساء . لقد كان فى إمكانه أن يهوى عذراء من الخرائد الحسان ، أو يتعلق أرملة خوداً فى نضرة العمر ، أو يتصل بغير ذلك من صنوف الغانيات المحترمات . ولكنه لم يتجه إلى الناحية الوجدانية الرقيقة ، ولم يترع إلى المتعة الحسية الصريحة ، ولم يطلب ما يطلبه الفنانون من حسن الشكل واستواء الخلق وتناسب القد والتقطيع . وإنما دب إلى المباءات الفاسدة يتطعم شر مذاق للإثم مع الوضاعة والفقر والقبح والمرض .

وكان بودلير يقرأ على أصدقائه الأدباء من شباب الحى اللاتينى ، وغيرهم ممن عقد معهم صداقاته الأدبية الأولى ، ما كان ينظم وقتذاك من مقطوعات غضة قوية ، مستحدثة عصبية ، مستغربة الأصالة ، ثم على ما خرج به إلى الدنيا شاعرنا الشاب ، من العقد النفسية ، وسوء الظن بالطبيعة البشرية ، وعدم المبالاة بالعرف والمواضعات الأخلاقية .

ومن الشواهد على ذلك قصيدته فى سارة اليهودية ، أو كما يسميها الحولاء La Louchette التى تعد مثالا على الفتيات التى كان يغشاهن ، وإن جاءت معرفته بها متأخرة عن غيرها وقد نشرت هذه القصيدة فى مجلة « فرنسا الفتاة La Jeune France » وكان بودلير حين نظمها فى العشرين أو نحوها :

« ليست من الغانيات النابهات خليلتى

« وإنما عن نفسي أخذت فتنها كما تؤخذ العارية
 « تقنحها عيون المستخفين وهي غير مبالية
 « ولا يزهو لها جمال إلا في مهجتي العانية

* * *

« من أجل حذاء تلبسه في قدمها باعت روحها .
 « وإن الإله الرحيم ليستهي لي لو أني استهزأت بها
 « واتخذت بجانب هذه المفصوحة سمت التورع وتظاهرت
 بالترفع
 « وأنا مثلها أبيع فكري راجياً أن أكون مؤلفاً

* * *

« والأدهى في أمرها جمعتها المستعارة
 « فقد انحسر شعرها انفاحم الحميل عن بياض قفها
 « فلم يكن ذاك بمانع محبها
 « أن يهوى بالقبل على جبينها الأملس كإهاب الأبرص

* * *

« هي حواء . ولكن نظرتها الغربية الحالكة
 « تحت سواد أهدابها الوطفاء كأهداب الملائكة
 « جعلت جميع الأعين الفتانة النجلاء .
 « لا تعدل عندي هذه العين اليهودية المذبوغة الحواء

* * *

« صغيرة لا تتجاوز العشرين ، ومع هذا فإن ثدييها

« مسترخيان يتدليان على جانبيها
 « وكثيراً ما خلا من درهم كفها
 « فلم تجد ما به تحاك جلودها وتدلّك كتفها

* * *

« والمسكينة عند الانفعال ، مقطوعة النفس ، بهورة
 « يأخذها الفواق وتكظ صدرها الحشرجة
 « وأكبر ظنى ، وأنا أسمع شهقاتها المخرجة
 « أنها نزلت ضيفاً على المستشفى مراراً كثيرة » .

ولقد جنت على بودلير هذه العشرة جنائتها . فلم يلبث أن أصابه
 الداء الحبث . وقد ألمع إلى ذلك بعد سنوات عدة في خطاب إلى أمه .
 ولا نعرف على وجه التحقيق كيف كان شعوره ، وهو في العشرين من
 عمره يجد نفسه مؤوفاً ماوئاً ، ولكننا نخال أن شعوره كان مزيجاً من الارتياح
 والرضى ، فذاك ما يتسق مع الذى عرفنا من مزاجه ، وليس أدل على هذه
 الحالة النفسية من أنه كتب فى ذلك الحين بيتين من الشعر على نحو ما يكتب
 على القبور ، وكان هو المقصود بهما ، وهما يجمعان بين التفجع الأليم
 والضحكة الساخرة الصفراء :

« هنا يرقد رهين انعماء
 « من جنى عليه التولع بإحط النساء
 « فنزل حديث السن غص الصبا
 « فى قاع مظلمة كجسحر الخلد فى جوف الثرى » .

ولا شك فى أنه من الدوافع التى دفعت بودلير إلى هذه الحياة
 نزوعه لإتيان الغريب والاجترأ على المستهجن ، وانجذابه إلى المكامن

المظلمة الغامضة بحافز الفضول والإغراق في الاستطلاع والتحليل ، وإيمانه إيمان معاصره الروائي « بلزاك » بأن النفس الإنسانية كثيرة الشعاب ، معقدة الأسباب ، مختلطة العالى بالسافل ، واتخاذها مثله موقف العالم الطبيعي الذي يعنى بدرس الجميل والقبيح ، والخير والشر على السواء . ولعله وراء ذلك كان يجد بعض الشفاء لنقمته على أمه فيما يجتمع له في هذه التجارب من الشعور بحقارة المرأة .

على أننا نخطئ إذا قام في خلدنا وتصور في وهمنا أن بودلير كان مرتاح النفس إلى هذه الحياة المنحطة التي يحياها ، فإن التقرير العين ، الطيب النفس بما هو فيه ، لا يجري على لسانه مثل هذا القول :

« كنت في بعض الليالي مع يهودية نكراء
« وكأنا كنت جثة ممددة إلى جانب جثة ،
« فأنشأت قرب هذا الجسد المبدول .
« أفكر في الجمال الحزين الذي حرته » .

فهناك إذا ما يقصر الفتى على هذا المتاع الرخيص . ولكنه الكاتم لسره ، المغلوب على أمره . وكل الذي نعلمه حتى الساعة علم اليقين ، أنه لم يكن فيما انغمس فيه مستغرق الحس ، مشبع النفس ، بل كان في أحضان الإثم الشائن ، يهفو للحب الصادق العظيم ، ويحلم بالجمال الرقيق الحزين . ومهما يهوى في درك الوهدة ، فإنه لم يبرح متطلعا إلى أعلى .

وكان من العسير على شارل وقد تقلب في هذه الحياة المخلوعة العذار ، وزادته الأوساط الفنية اندفاعاً للتفكير الطليق من كل اعتبار ، أن ينسجم كثيراً أو قليلاً في بيئة كالتى يعيش فيها والداه . فلا جرم نراه ضيق الصدر ، غير منبسط النفس ، في تلك الولاثم الرسمية التي كان يقيمها زوج أمه ، والتي كان يحضرها كارهاً ، ويستمتع إلى أحاديثها الغثة

متبرماً . وحدث في بعض هذه الولائم وأعصابه جد مهتاجة ، أن أفلت منه عنانها فعقب على بعض الكلام تعقياً ساخراً . فأنكر عليه أوبيك وأغلظ النكير . وساد الوجوم على المدعوين . وهب الفتي ممتقع اللون من الإهانة ، وقال وهو في أشد الغضب ، متكلفاً كمألوف عاداته الأدب « سيدى ، إنك لم ترع حرمتى ، وأخطأت أكبر الخطأ في حقى ، وهذا يستوجب الجزاء ، وسيكون لى شرف خنقك » فلم يبالك الضابط الكبير فى حلة التشريف الفاخرة إلا أن صفعه . واضطربت المقاعد وعم الدهول وارتعى الفتي على الأرض فى نوبة عصبية شديدة .

وقد كان من جراء ما انساقت فى تياره حياة بودلير الخاصة ، فضلاً عن هذا المسلك المستهتر الذى بدرت إيوادره من الفتي على الملأ فى المجتمع ، أن انزعج الجنرال أوبيك زوج أمه أشد الانزعاج ، ونحشى على نفسه من هذه المواقف والشطحات وما تؤدى إليه من سوء القالة التى تمس ولو من بعيد ما بلغه من رفعة الرتبة وجاه المنصب ، فعمل على عقد اجتماع للأسرة .

وبعد أيام كان مجلس الأسرة منعقداً وفيه الدوق فيلكس من آل براسلين أصدقاء والد الشاعر وقد قر رأى المجلس على أن يرحل الفتي بعيداً عن عشراء السوء فى رحلة طويلة ، واعتمدوا لها خمسة آلاف فرنك من ثروة الفتي القاصر . فما برحت الأسفار — على حد قول أوبيك — أصلح تنشئة للصغار .

الرحلة إلى الشرق بين أفريقية والهند

في التاسع من شهر يونية سنة ١٨٤١ أقلت من ميناء بوردو الفرنسي الواقع على ساحل المحيط الأطلسي ، مركب عليها اسم (بحار الجنوب) (Paquebot des mers-du-sud) وفي هذه المركب كان شاعرنا بودلير ، وقد أسلم إلى قبطانها « ساور » Capitaine Saur الذي كان صديقاً قديماً لزوج أمه ، وكانت وجهة المركب بعيدة. تقتضي الطواف حول أفريقية إلى بلاد الهند ، قاصدة على وجه التخصيص كولومبو عاصمة سيلان ، ثم كلكتا عاصمة البنغال .

ولقد ارتضى الفتى هذه الرحلة بعد تمنع ، لما رآه من حماسة أديب صديق له من هواة الأسفار الحامين وهو «جيراردى نرفال» Gerard de Norval ولا شك أن كلمة الهند وحدها كان يكفي وقعها في سمع هذا الصديق الملهب الخيال ليتمثل في ذهنه مناظر ساحرة الروعة عجيبة الجمال ، وفتنة في هذه الآفاق النائية وراء ما يتصوره وهم إنسان . فلا عجب أن كان بودلير ساعة الرحيل على شيء من البرضى والبشر . ولكن هذه الحال لم تطل مدتها . فما لبث يوماً أو بعض يوم حتي ضاق بهذه الرحلة وركبه الملل ، وحن إلى ندمائه في باريس وفنون أحاديثهم .

ولم تكن أسباب الراحة متوافرة في ذلك العهد . وكان الفرق لا يكاد يذكر بين حال المسافرين والملاحين . وكانت المشاركة عامة في الطعام والنوم والمغسل بين أفواج الركاب . وفي ذلك ولا ريب ما يضيق به فتى رقيق أنيق مثل فتانا بودلير . ولكنه كان أشد من هذا ضيقاً بالمسافرين

أنفسهم . فقد كانوا — كما لا بد أن يكونوا — خليطاً من تجار المستعمرات ورجال العسكرية ومعهم نساؤهم وأولادهم . وطبيعى أن الحديث الذى يدور بين أبناء هذه الطبقة الوسطى (البورجوازية) بمسمع منه لا يعدو الشئون المعاشية ، والنوادر التافهة العامة ، والاعتبارات الخلقية العرفية . فامتلات نفس شاعرنا الباريسى احتقاراً لهم وحزاة عليهم . فصار يجد لذة شيطانية فى إتيان ما يستهجنونه والاستهزاء بما يعتقدونه . وقد زاد فى ارتياحهم أن يصدر هذا عن فتى ناشئ فى سن أبناؤهم فلم يزدده استيحا شهم منه إلا تمادياً فى موقفه وعناداً . وكان القبطان — كما أسلفنا — صديقاً قديماً لزوج أمه ثم هو طامع يوماً فى الاستعانة بجاحه ، فكان يبذل وسعه لمرضاته والتسرية عنه ، وقد خطر للقبطان فيما خطر بآدى الأمر أن يوصى ابنه بملازمة بودلير فى غدواته وروحاته ، فهو فتى من لداته ، فكان حظه من الزراية وسوء المعاملة فوق حظ الآخرين .

وقصارى القول أن بودلير كان فى السفينة مستوحداً منطوياً على نفسه مستغرقاً فى الكتابة والوجوم . وقد اشتد للعودة حنينه .

وعاجت المركب بجزائر الرأس الأخضر المحاذية للشاطئ الأفريقى عند السنغال للترود بماء الشرب ، وأقامت يوماً ، ثم رفعت مراسيها ومضت توغل جنوباً وقد شارفت خط الاستواء ، وأصبحت حرارة البحر تلهب الأعصاب وتزهق الأنفاس .

وكان يقطع أطراد الرحلة ، وسياقها الرتيب ، ما يقع للنوتية من عجائب الصيد . من ذلك أنه اتفق لهم ذات مرة حوت من خنازير البحر اشتغلوا بصيده . وقد اقتطع منه طبّاخ السفينة قطعة صالحة جعلت لطعام اليوم طرافته . وما بنا أن نورد الحكايات من ذلك القبيل ، ولكننا نخص بالذكر واحدة . فقد وقع للقبطان فى عصر بعض الأيام أن أصاب بطلقة من بندقيته طائراً عظيماً من طيور البحار الجنوبية كان محلقاً فوق

صواري المركب . فهوى الطائر على ظهر المركب حيناً إذ أصابه الرصاص في جناحه دون سائره فشد الملاحون ساقه بنحيط طويل ا وتركوا أسيرهم يدلف على سقائف السفينة .

وكان الطائر عظيم الجرم لا يقل عرض جناحيه عن اثنتى عشرة قدماً . وكان الملاحون يعاكسونه ويستغزون به ليتفرجوا بالنظر لهذا الطائر العظيم من طيور الفضاء يمشى على أرض السفينة على قدميه متخبطاً في مشيته الخرقاء ، مجرراً جناحيه الطويين ، على صورة جمعت من المفارقات ما جعله على ظهر السفينة ملهى ومعرض استهزاء . فكان يضحك لمراه جميع من بالسفينة ، ويضحجون بالضحك عدا بودلير . ولعلنا نلمس موقفه وكنهه شعوره وقتذاك في هذه القصيدة الفريدة في موضوعها التى نظمها بعد سنوات من عودته بعنوان « طائر القطرس L'Albatros »

« كان الملاحون كثيراً ما يلهون
« فيقنصون طيور البحر العظام
« وهى تابعة مستسلمة مسترساة كرفيق الطريق
« فى صحبة السفينة المنسابة فوق بلحج الخضم السحيق .

* * *

« فما هو إلا أن هوى بعضها على أرض المركب
« حتى رأينا هذا الملك من ملوك الأجواء فى حال شوهاء
« وأجنحته البيض الطوال مسلوكة الكبرياء
« يجرها إلى جانبيه كالمجاذيف .

* * *

« ذلكم فارس الهواء ، ما أسمع ما صار إليه ، وما أهونه !

« ذاك الذى كان مرموق الأبهة ، ما أقبحه ، وأدعاه للتفككة .
 « والقوم من حوله ، بعضهم يمس بقمصبة التبغ منقاره مضايقاً
 « والبعض يتعارج محاكياً هذا الكسيح وقد كان محلقاً .

* * *

« كذلك الشاعر ، أشبه الأحياء بأمير الأجواء
 « يقتحم العواصف ولا يبالي الرماة وهو فى أوج السماء
 « ولكنه على الأرض غريب طريد ، ومعرض استهزاء وهوان
 « يمشى متعثر الخطو ، يعوقه عن المشى ، جناحاه الجباران
 وأخيراً بعد أن استوفوا حظهم من الضحك أجهزوا على الطائر .
 وجعل منه الطباخ فطيرة ليوم اجتيازهم لخط الاستواء ، وهو من الأيام
 التى يحتفلون بها ويتجهزون لها بالطعام والشراب .
 ولما بلغت المركب أقصى الجنوب عند رأس الرجاء الصالح ، هبت
 عليها عاصفة هوجاء قال عنها القبطان فى تقريره « إنها حادثٌ من أحداث
 البحر لم يمر به مثله فى مدى الحياة الطويلة التى قضها فى البحار
 وظلت السفينة خمسة أيام وخمس ليال تتقلب ظهراً لبطن بين طوامى
 الأمواج ، وقد غمر الماء غرفها ، واستولت على ركبها رعدة الخوف والبلل .
 وفى هذه الحال الرهيبة كان بودلير كالعهد به لم يفارقه تكلف الأدب
 ورعاية مراسمه . وذلك أن أمر الفتى ليس كله تظاهراً وجعجعة ، بل
 فى نفسه وثاقة وصلابة ، ولقد أثنى القبطان فيما كتبه — وهو المعروف
 بجلده وشجاعته — على ما أبداه الفتى من ثبات جنان ورباطة جأش .
 أما بودلير ، فإنه لم يشر أية إشارة إلى هذا عند عودته .
 وكان قد انقصف أحد الصواري وطاح مع بعض الشرع إلى اليم .
 فلما أن سكن الإعصار وصحا الجو ، أخذت السفينة المهيضة تشو

طريقها حتى دخلت المحيط الهندي ، ومرت بجزيرة مدغشقر وتجاوزتها ، ثم توقفت وألقت مراسيها بجزيرة موريس . وكان دخول السفينة فرضتها في اليوم الأول من شهر سبتمبر بعد ثلاثة وثمانين يوماً من السفر في البحر .

وبينما كان العمل جارياً في إصلاح السفينة كان مقام المسافرين جميعاً في الفندق الوحيد بالمدينة . وكان بودلير محققاً متسخطاً ، لعدم استطاعته التخلص من صحبتهم ، وهي عنده أدهى وأنكى من البعوض ينهشه ويعذبه . على أنه وجد بعض الراحة في صحبة أفراد من المتطوعين الفرنسيين في الجزيرة ، وهم معظم الجالية الأوربية بها على الرغم من دخولها في حوزة إنجلترا في أثناء الحروب النابليونية . وقد توثقت الألفة بينه وبين آل « براجار Antard de Bragard » خاصة ، فكان يختلف إلى دارهم أكثر الوقت . وكانت مدام براجار رائعة الحسن ، ومما يجدر بنا ذكره لزيادة التعريف بها أنها كانت لها ابنة تزوجت بعد سنوات فرديناند دي ليسبس . وكان مجلسها لا يخلو من بعض المتأدين والمشتغين بنظم القريض . فانفسحت لبودلير فرجة للكلام في الأدب وما استحدثت بباريس من مذاهب واتجاهات ، ولا شك أنهم فهموا من كلامه أنه يتعاطى الشعر ، فاستهداه صاحب الدار المزارع الكبير براجار أبياتاً تذكراً لزيارته . وامتدت الأيام وفعل الجوالدفى والهواء العليل في أعصاب الشاب ، وغلبت العذوبة السارية على نفسه الثائرة ، فكان يقضى الساعات كالحالم . متفتر الأوصال تحت ظلال النخيل ، وهو قرير العين طيب الخاطر في هذه الجزيرة الحادثة ، مشمولاً بعطف السيدة الحسنة الفاضلة . وحسبنا شاهداً على ذلك إيراد هذه الكلمة من رسالة له إلى آل براجار (ولولا أن حي لباريس وحنيني إليها تجاوزا كل حد ، لأقمت بينكم أطول المقام ، ولفعلت كل ما يجعلني محبباً إليكم ، ولرأيتموني أقل شذوذاً مما يظهر مني) ، وكلمة الشاعر هذه في رسالته إلى آل براجار شاهدة بأجلى بيان على ما تستطيع

البيئة الحميلة المدركة الطيبة أن تفعله في مزاج هذا المحروم المعذب .
 ولقد برّ الشاعر بوعده ، فلم تمض على مغادرته الجزيرة أيام حتى
 أرسل بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٨٤١ من جزيرة بوريون وهو في طريق العودة
 أبياتاً يحى بها غانية جزيرة موريس مع رقعة إلى زوجها يقول في مستهلها .
 (لما كان من المستحسن واللائق والمناسب أن شعراً يرفعه شاب
 إلى سيدة متزوجة ، لا بد من وروده على يد زوجها قبل بلوغه إليها ، فأنا
 مرسل الشعر إليك لتطلعها عليه إذا رأيت ذلك) .

وهذه هي الأبيات :

« في البلاد المتضوغة بالعطر التي تداعبها الشمس الساطعة
 « وتحت ظلة ظليلة من شجر وارن أرجواني
 « ومن نخيل تفيض على الاجفان فتوراً .
 « عرفت غانية مستوطنة ذات فتنة لا عهد بها

* * *

« لوها شاحب حار . وهذه الفاتنة السمراء
 « ذات جيد مشرف السميت ، نبيل الالتفات
 « مهيبة القامة هيفاء ، كأنها طاردة قانصة
 « لها ابتسامة هادئة ، وفي عينيها ثقة .

* * *

« لو جئت يا غانية — إلى بلاد المجد الأثيل
 « على ضفاف السين أو وادي اللوار النضير

« أيتها الحسناء الرائعة الطلعة التي تليق زينة لقصور الأمراء.

* * *

« إذا لحيتك في كنف خمائلها الوارفة
 « ألف مقطوعة أنت أطلعت طلعتها في أفئدة الشعراء .
 « وقد سبتهم عيناك النجلاوان فباتوا أطوع لك من عبيدك
 السود » .

ولم يتجاوز مقام بودلير في جزيرة موريس أسابيع ثلاثة ، بل هو على وجه التحقيق أقل من ذلك. فقد نزل إليها - كما قلنا - في أول يوم من شهر سبتمبر وكانت رحلته عنها في التاسع عشر . وإذا كان شاعرنا طوال أشهر السفر لم يفتأ شديد الحنين إلى باريس ، كارهاً للبعد عنها فإن حنينه بعد هذه الأسابيع الثلاثة كان قد بلغ مبلغاً لا يغالب . فهو موطن العزم على قطع هذه الرحلة الطويلة والعودة من حيث أتى .
 على أن حواس الشاعر - على الرغم من الملل القاتل - كانت تعمل ، وذاكرته - من غير علمه - كانت تسجل . فثمة الخليج الممتد أمامه تتعالى الصواري فيه كالغابة الشجراء ، مزدحماً بأنواع السفن كباراً وصغاراً شتى الأشكال مختلفة الشيات ، وعليها المسافرون والملاحون والحمالون جميعاً في هرج ومرج من جميع الألوان والأجناس . وثمة مزارع قصب السكر منبسطة عند قدميه شاسعة . وهنا وهناك على المغايض أشجار عبقة الصمغ ، متدلية الشعور ، ذات خضرة مائية . ومن فوق هذا كله زرقة السماء الشديدة النيلجية . وفي الحين بعد الحين تسمع هتافات لبعض الطيور شاذة النغمة عجيبة التصدية . وتتوارد على النظر سحنات الهنود المجلوين للعمل ، يقطعون الزروع ويحملون الحصاد ، وأشباح الجوارى السود ممشوقات القدود ، والفوط الملونة مشدودة حول أردافهن المترجحة .

ولكن الفتي المغموم ما كان ليعبر هذا المنظر اهتمامه . إنه يفكر في باريس مصمماً على العودة . وأعلن إلى القبطان تصميمه ، وأحس القبطان هذه المرة أن المراجعة لا تجدى . فاتفقا على أن يصحبه حتى جزيرة بوربون ، وهناك يدبر له السفر على إحدى السفن العائدة . فلما رست المركب في جزيرة بوربون ، كان المال قد بلغ ببودلير غاية مداه وانتهى إلى أقصاه ، فكره أن يتزل إلى الجزيرة ، وبقي من الحرد عشرين يوماً في المركب ، حابساً نفسه متنكراً لما حوله ، وفي أثنائها كان نظمه للقصيدة التي أرسلها إلى الحسناء الفرنسية نزيلة جزيرة موريس . وقد يش القبطان (ساور) من استرضائه وإقناعه بالمضي في الرحلة على سفينته . وفي السابع عشر أو الثامن عشر من أكتوبر أقلت (بحار الجنوب) شاخصة إلى البنغال — دون بودلير . لقد وكله القبطان ساور إلى عناية قبطان السفينة (السيد alcide) القافلة إلى فرنسا .

وهكذا كانت رحلة بودلير إلى الشرق مقتضبة . ومع ذلك فإن ما أفاده منها لا حد له . لقد عاد أوفر خيالا وأغنى إحساساً بما اجتلته عيناه من المناظر ، وما حلمت به نفسه من الأحلام . إن الشهور الطوال التي قضها على ظهر المركب لا يجد ما يفعله إلا النظر في اللجة الطامية المترامية في عرض البحار ، قد زادت في تعميق ميله إلى سباحات الفكر . وإن ينس فلن ينسى أيامه في تلك الجزيرة النائية في المحيط الهندي ، في أجنضان حياة عذبة نشوى ، حيث الألوان الزاهية تخطف الأبصار ، وحيث النباتات العجيبة في هبوة الحر المتصاعدة تتحوى وتتلوى كأنما هي من عالم الأشباح لا من عالم الحقيقة ، ثم ساعات القيلولة ، وهو متفتر الجسد في ظلال الأكواخ ، تحت سماء الظهيرة الصاخدة المحرقة . وبعدها ساعة المساء المشبعة المثقلة بشذا العطور الفاغمة وهو في حال من خدر الحس وسكرة النفس بين الجلم واليقظة . لقد أشربت نفسه وحسه وذهنه وخياله

ز بكل هذا . وتزودت منه بذخيرة لا تنفد ، يقبس منها في مستأنف حياته
للصور والتشابه والمقابلات والرؤى لأجمل كتاباته وأروع أشعاره .
عاد شاعرنا من الشرق فلم يلبث أن ظهر في شعره هذا الشوق الغامض
إلى جواء غنية حارة ، وآفاق بعيدة مجهولة ، وبهاء باهر ، وجمال نادر ،
مما يعز وجوده في هذا الوجود . ولقد بقيت لشعره هذه النزعة الحسية الصوفية
التي تعد أخص خصائصه .

فهذه الرحلة للشرق كانت نقطة التحول في حياة بودلير الأدبية . فقد
بدأ بداية ناشئ غير مستوثق من نفسه ، يصبو إلى أن ينتظم في الحياة
الفنية تساوره صور من الشعر مبهم . أما اليوم ، فقد انقلب صاحب
قريحة أصيلة ، وخيال مشبوب مطبوع ، ووحى خالص له ، ورسالة
مخصصة به .



الشاعر في جولاته الليلية

رسم خيالي بريشته



زهرة الشر . . جان ديفال

بريشة الشاعر

الولد المضيع

كان نزول بودلير إلى أرض الوطن في فبراير سنة ١٨٤٢ ، بعد تسعة شهور من الغيبة ، وبعد أيام كان في باريس ، ولم يكن أحد يتوقع قدومه بمثل هذه السرعة ، ولم تمالك الأم أن غلبها الفرح حين رأت ولدها المضيع يعود إليها ، أما الجنرال أوبيك ، الذي كان على علم بمسلك الفتى في الرحلة من رسالة تلقاها من القبطان ، فقد هز كتفيه كمن نقض عنه كل أمل في استصلاح الفتى .

وكان شارل في دخيلة نفسه يستشعر الخوف من زوج أمه ، وهو يستر هذا الخوف حتى عن نفسه ، بالتظاهر بقلّة المبالاة والمبالغة في الاستخفاف ، وكان الفتى من العصبية بحيث يسىء إلى من يريد مرضاتهم ، وهو أسوأ تصرفاً إذا شعر بأنه غير موضع للرضى ، ثم في طبعه فضلاً على ذلك شيء من الانتكاس يدفعه خاصة إلى إتيان العمل الذي لا يشك أن فيه استفزازاً لمن يكبرونه وتغييراً لهم عليه ، ولقد يأسف على هذا التصرف يصدر منه ، ولكنه أبدأ تصرفه الذي لا حيلة له فيه ، ولا معدى له عنه . عاد بودلير إذن من الرحلة واستأنف الحياة بباريس فلم يأنس أحد أدنى تحسن في سيرته ومتوجهه ، فهو كسابق العهد به مقارن لعشاء السوء ، لا يأخذ الدنيا مأخذ الجلد ، ولا يتهياً لعمل منتظم ، وكل ما جد في الأمر أنه اليوم أكبر عمراً ، ولكنه ليس أرجح عقلاً .

وكان الجنرال أوبيك لا يخلو من تصعب الخلق ، وتعقد الجانب في تلك الأيام ، إذ تحرك عليه الألم من جراحة قديمة ، فهو ضيق الصدر لا يطيق الصبر على رؤية هذا الفتى في العشرين من عمره لا يعمل شيئاً طوال يومه ، إلا أن يدور في حجرات البيت يدخن أنواعاً من قصبات التبغ ، ولا يفتأ

يتعرض بالقول المخالف لما يرى الجنرال أوبيك أنه لا يعرفه ، وهو الحياة والأخلاق ، فإذا هو خرج ، فلنما يخرج ليفنى وقته في المقاهي والمشارب ، مع عصابة من السفهاء المتاليف أمثاله ، وكان أوبيك لا يعنى الفتى من موجع النكير وغليظ القول على قببح سيرته ، والفتى يجيبه متحدياً متوقفاً غير مبق على مودته ، وكانت مدام أوبيك تشقى أشد الشقاء بدوام الخلاف وامتناع الوفاق بين أعز من في الوجود عليها : ابنها وزوجها ، وهى لا ترجو من دنياها شيئاً إلا أن تراهما إلى جانبيها يعيشان معاً في سلام ووثام .

ولكى تأمن مدام أوبيك ألا يقع صدام بينهما في غيبتها ، عمدت إلى اصطحاب الفتى معها عند خروجها للزيارة . والفتى كدأبه لا يفوته شيء مما يجول في خاطر أمه . فبينما هو معها في زيارة لإحدى الأسر الكريمة من معارف أوبيك ، أفضى بالقوم الحديث إلى ذكر المرأة . فقال شيخ جليل كبير المقام من الحاضرين على سبيل التحية لصاحبة الدار (إن المرأة أبدع وأكمل خلق الله) فإذا الفتى في كراهته للألفاظ الجوفاء وازدراؤه لمجاملات الثناء — يبادره : (أوحقا تظن ذلك ، إنى أخالفك . النساء في رأيى كالحيوانات الدواجن لا بد من حبسها وإيصاد الباب دونها . ومن الواجب القيام على تغذيتها والعناية بأمرها . ومن الواجب في الحين بعد الحين ضربها وتأديبها) . ونترك للقارئ تصور الامتعاض الذى أحدثه هذا القول بين العلية المجتمعين في حجرة الاستقبال الفاخرة . وأما والددة بودلير — وهى الشديدة الحرص على مواضعات المجتمع — فلم تدر أين تدور بوجهها من ارتباكها وخجلها . ومنذ ذلك اليوم لم يعرض على بودلير أن يغشى ذلك البيت .

ولم تمض أسابيع على مقام الفتى مع أمه وزوجها في باريس حتى أخذ يثقل عليه جو الاستنكار وعدم الرضى الذى يعيش فيه — وإن يكن

هو موجدہ ، والمہیئ لأسبابہ . فکبر علیہ الأمر ، وعز الصبر .
 وفي أبريل سنة ١٨٤٢ بعد شهرين من عودته ، بلغ بودلير سن الرشد .
 وقد حرص أوبيك - وهو دائماً المدقق المتشدد - على تقديم الحساب لابن
 زوجته حالما انتهى أمد قيامه عليه مقام الوصى . وكان الميراث مشتركاً بين
 بودلير وأخيه لأبيه . وقد أراد بودلير - كما هو المنتظر - نصيبه نقداً .
 فبيعت حصته من الأرض دون أخيه ، فكان له منها ٧٥٠٠ فرنك ،
 وللنقد في ذلك الحين أضعاف قيمته في أيامنا . فلا يغالى من يسلكه في
 عداد أبناء البيوتات الميسورين . وأما في وسط الأدباء البوهيميين من الحى
 اللاتينى فكان معدوداً من ذوى الثروة العريضة . وقد جاء على لسان صديق
 منهم وهو بانفيل في معرض رثائه بودلير عند وفاته قوله : « لقد كان عظيم
 الثراء فمات فقيراً » .

وما كادت تم لبودلير تسوية ميراثه ، حتى فارق دار الأسرة بعيداً
 عن الاستهجان والإنكار ، بعيداً عن هذا الرجل الذى يدخل في روعه
 دائماً أنه مخلوق عاجز مضيع . ولقد اتخذ قراره ودبر تدبيره دون أن يطلع
 أحداً . فإذا كان في عصر بعض الأيام تسلك من البيت تاركاً لأمه رقعة
 فوق منضدة الردهة أو في موضع زينتها . ولعله أثر هذا الروغان اتقاء
 لموقف صاحب مع زوج أمه ، أو تفادياً من مشهد مؤثر مع أمه . وأما
 الرقعة فهذا نصها :

« إننى ذاهب عنكم ، ولن ترونى إلا في حال أحسن من حالى معنوياً
 ومادياً . ولذهابى أسباب عدة : أولها : ما ران على من انحطاط فى القوى
 ونحمود شنيع فى النشاط ، فأنا محتاج إلى الكثير من الوحدة للتسرية
 والاستجمام . ثانياً : أنه يستحيل على أن أكون ما يريدنى زوجك على أن
 أكونه ، ومن ثمة فأنا فى حكم من يسرقه إن أقمت عنده أكثر مما
 أقمت . وأخيراً إنى أرى من غير اللائق أن تكون معاملته لى على النحو

الذى أراه يزعمه . وأكبر الظن أنى مقبل على حياة صعبة ، ولكنى سأكون أسعد حالاً وأهنأ بالاً .

وسأكتب إليك اليوم أو غداً بما أنا محتاج إليه من متاعى ، وإلى أى مكان يكون إرساله . وهذا العزم منى راسخ قاطع ، وقد أمضيته بعد إعمال الروية وإطالة التفكير . فالشكوى منه لا موجب لها ، وإنما فهمه هو الواجب . »

واستطاب بودلير الحياة بعد هجرته الدار فى يونيو سنة ١٨٤٢ . إن الحياة لحافلة بما يمكن أن يفعله ، وبما يمكن أن يكشفه ، وما يمكن أن يلابسه من خير ومن شر . لقد تخلص من الإحساس بالضيق ووطأة القهر فى جوار زوج أمه ، فهو لا يرى شيئاً مستعصياً عليه ، أمامه الحياة الأدبية ناشطة جاثشة . وهل كان أوفر نشاطاً وأكثر جيشاناً من الحياة الأدبية فى منتصف القرن التاسع عشر . وكان الاشتهار هيناً ميسوراً لمن له حظ من القريحة . ولقد اشتهر من دونه سنا ، ومن هم أقل منه موهبة . وكذلك كانت أمامه حياة اللذة والاستمتاع فى باريس . وباريس وقتئذ فتنة لا تعدلها فتنة . فقد بدأت تأخذ مظهرها الذى صارت به فيما بعد حاضرة الخواضر وعروس المدن الأوروبية . عمّ التجميل شوارعها وميادينها ومبانيها وكنائسها ومقاهيها ومشاربها ، وقام بها قوس النصر ، واستكثر من مصابيح الإضاءة المستحدثة بالغاز حتى زهت لياليها الساهرة ، وحفلت بالمقيمين والزائرين من كل قطر ، واستحقت من ذلك الحين لقب « مدينة النور » .

، ألقى شارل بودلير نفسه فى وسط هذه الحياة الحافلة المتفرزة . وكان صادق النية على العمل مع ما فيه من انجذاب — كأهل العصر — إلى طلب اللذات . وكان همه الأول أن يجد المكان الموافق لإقامته . ولقد اختاره بعيداً عن الحي اللاتيني . فهو — وإن كان يوافق أصدقاءه

بالحي اللاتيني في شهوة الحرية واحتقار المواضعات الاجتماعية — يخالفهم في حرصه على النظافة والأناقة ، وإيثاره للمظهر والأبهة ، وتكلفه للتطرف والتزامه مراسمه. وقد استقر به المقام أخيراً في فندق لوزون Hôtel Lauzun (ويسمى أيضاً بيمودان Pimodan) حيث كان يقيم بعض السادة الغطارييف . فاتخذ به جناحاً وإن يكن دونهم إلا أنه مؤلف من بضعة حجرات قليلة السعة عالية السقف مطلة على السين ، اشترى لها أفخر الأثاث من تاجر من تجار العاديات غتالى في ثمنها وأثقله بالديون حتى مات ولم يفرغ من وفاتها جميعاً . ولا غرابة في الأمر إذا علمنا أنه كان كلما كره بعض الصور أو الأثاث ردها للتاجر وأستبدل بها غيرها ، مع زيادة الدين . وكانت الجدران مغطاة بالورق المخطط سيوراً عريضة سوداً وحمراً ، ولوحاتها منقوشة بالذهب ، وقد عُلقت بها صور شتى للرسام دلاكروا (Delacroix) مطبوعة على الحجر نقلا عن الأصل إلا واحدة أصلية تمثل الحزن . وكذلك صورة زيتية للرسام ديروى (Deroy) تمثل (نساء الجزائر) . وكانت على النوافذ والأبواب أستار من الدمقس القديم الصفيق . والأرض مفروشة بالطنافس الناعمة الوثيرة لا يسمع عليها وقع قدم . وكان الخادم يدخل بين الفترة والفترة في سكون للقيام بالخدمة ، وكان بودلير نفسه يخافت الخطو حين يمشى بين ضيوفه يرشهم بالعطور الشرقية .

وهذا بعينه لون الحياة الذي شاع في أواخر القرن التاسع عشر وأصبح هو النسق المحتذى عند المتأثرين بدعوة الجمال الفني لذلك العهد .

ولقد صرف بودلير مثل هذه العناية إلى بزته وهندامه ، فكان يلبس أحياناً سترة من الخمل الأسود مشدودة إلى وسطه بحزام مذهب ، فيكون له بذلك مع شعره القاتم ، ولحيته الخفيفة المخروطة ، منظر أشبه

بتصاوير الرسام تيتيان . وأحياناً كان يلبس سترقة طويلة مستدقة الذيل وسروالا ضيقاً من الجوخ الحالك اللون ، ثم الجورب من الحرير أبيض . وأما القميص فمن الكتان الناصع دقيق النسج ، وأردانه مشاة عريضة ، منفرج الجيب عند العنق تزينه ربطة حمراء قرمزية . وقد يرى كذلك مرتدياً حلة زاهية الزرقة مذهبة الأزرار . وكانت معظم ثيابه التي يرتديها من رسمه وتفكيره ، وكان يعنت الحائك من فرط التدقيق في إخراجها مطابقة لفكرته . وبالجملة كان من الشبيهة المتحدقة الهندام المتغطرة ، وله في ذلك مذاهب وأقوال مأثورة .

لقد قلت زيارات بودلير لمقاهي الحى اللاتينى - كما أسلفنا ، وأخذ في أكثر أوقاته يغشى في العدوة الأخرى المقاهي الأنيقة التي كانت ملتحى الكتاب الإبداعيين ، من أهل الظرف والأناقة ، أثال الفرد دى موسيه (Alfred de Musset) وروجيه دى بوفوار (Roger de Bouvoir) وغيرهما ممن كانوا يشغلون الناس بشكل هندامهم ، وألوان زينتهم ، وتنسيق أثاثهم ، وطرائف غرامهم ، قدر ما يشغلونهم بأدبهم في بعض الأحوال .

وكان بودلير إذ ذاك محدثاً من أبرع المحدثين . فلا يكاد يجلس إليه أحد إلا وقع تحت تأثير سحره . ولقد وصف « تيودور دى بانفيل » - وهو وقتئذ أسبق قدماً في عالم التأليف وله مكانة وشهرة - أول اجتماع له ببودلير وصفاً يدل على مبلغ انجذابه وافتتانه . « نعيم الليل صافي الأديم ساجياً ساحراً ، فخرجنا من حدائق لوكسمبرج نمشى في شوارع البوليفار . وفي تلك الليلة التي ما برحت أعز ذكريات الصبا عندي ، غمرني بودلير وحدي بما لا حصر له من كنوز ذهنه وذخائره ، أشبه ما يكون بتلك الأميرة التي تحكى عنها القصة أنها كانت تساقط اللآلى والدر من فيها . ولقد مضت بنا الليلة كلها سريعة خاطفة ونحن نتكلم » ولم يكن بودلير بحاجة إلى الخمر ليرسل الحديث حيا مشبوباً . فقد كانت تأخذه

نشوة الحديث إذا تحدث ، وما أعوزه قط موضوع للكلام . وكان يتكلم في الجمال والسياسة والمعقولات فيستهوى الأسماع على حد سواء فيها جميعاً . ولا غرو أن يكون ذلك كذلك عند من يصف الحديث بأنه « المتعة العظيمة الوحيدة لكل ذى روحية وأريحية » .

ولكن بودلير لم يكن يقف عند سحره الناس ، بل كان لا بد له من إثارة دهشتهم ومفاجأتهم . فليس أحب إليه من ارتسام الدهش على الوجوه . فإذا جلس في مقهى من المقاهى يرشف قهوته بعد الغداء ، قضى الساعات الطوال يتحدث ، وقد أقبل عليه الناس من جميع الموائد . ومتى استحوذ على أسماعهم ، استغرق في مقعده ووضع ساقاً على ساق ، وجعل يتأمل ذوائب الدخان تتصاعد في الهواء من سيجاره الكبير ، وأنشأ يرجف :
« أنا — بحكم أنى نجل قسيس كاثوليكي — عليم بما أروى لكم . . . »

« حدث ذلك في الوقت الذى قتلت فيه المرحوم والدى الشيخ » .

ومن هذا القبيل الكثير مما ورد عن الشاعر في مذكرات بعض المعاصرين من الأمور الغريبة المنكرة . على أن من يقرأ عن أوساط الفن والأدب خاصة في ذلك العصر ، يقرأ الكثير عن ضروب الإباحة والاستهتار ، وعن نوادى تدخين الأفيون والقنب الهندى ، وعن استطرافهم للذائل وتكلفهم غرائب الأطوار . وقد أثبتنا للشاعر ما أثبتناه ، وأغفلنا ما أغفلناه ، ضاربين صفحاً عن ذكره ، ولم نجد ضرورة لتقصيها ما دام شاعرنا لم يختص بها .

زهرة الشر

في عام ١٨٤٣ في بعض الليالي عقب العشاء بأحد المقاهي الباريسية ، غادر شارل بودلير أصدقاءه الأدباء معجلاً . ولعله شاء أن يأوى إلى داره ويعكف على العمل . لكنه درج في الطريق مسترسلاً ذاهباً على وجهه لا يبغى مقصداً بعينه . فتجاوز ساحة الأديون ماضياً طوع قديمه حتى قبيل نصب البانتيون ، فاستوقفه إعلان تافه ، لمسرح في الحي صغير ، عن رواية ذات فصل واحد وأدوار غنائية . ولم يكن عنده شك في سخافتها . ولكن هذا الرقيق الذوق ، المرهف الحس ، كان أحياناً لا يستكره هذه السخافات لما فيها من مبالغة لتفكيره البعيد وتأملاته العميقة فدخل الملهى ، واستمع إلى بعض مقطوعات العزف والغناء . وقوبلت هذه بالتصفيق الفاتر المسترخى كأنه التثاؤب . وسكتت الموسيقى من الفرقة العازفة الهزيلة . وبدأ التمثيل على طريقته المعادة المألوفة ، في حركة من المرح متكلفة النشاط سخيفة . ثم ظهرت - فيمن ظهر على المسرح - خادمة" لفظت ثلاث كلمات لا أكثر . فاشرب لها بودلير كالمستغرب . إنها جارية مولدة ، ولا تشبه من معها من الممثلات ، طويلة القامة ، لها خصر نحيل مفرط الدقة ، وأرداف جزلة مستعرضة ، ونهد" قاعد على صدر نحيف . وبالجملة كانت تخالفهن بشيء من المبالغة . في تقاطيعها وبضرب من التموج في مشيتها . وما لبث بودلير أن عرته هزة . وعمد إلى البرنامج الذي بيده يتعرف على اسمها : (الأنسة جات ديغال) . ولما لم يكن في هذا غنية ولا شفاء غلة . فقد استطلع خبرها ، فعلم أنها حديثة العهد مبتدئة ، وأنها لا تظهر بعدها في رواية الليلة ، وأن دورها في التمثيل لا يتجاوز قط عبارة قصيرة مما تقوله الخادمة ، تعلن قدوم زائر

أو تؤذن بأن المائدة جاهزة . وليس يخفى أن الأمر في هذه المسارح المأجنة يسرّ والوصول مباح . ولكن السيد بودلير مع هذا لم يقصد من فوره إلى ما وراء الستائر لمقابلتها كما هو المؤلف مع أمثالها . بل ابتاع باقة من الزهر أرسلها إليها ، مع بطاقة يعرب فيها عن أمله في أن تسمح باستقباله في اليوم التالي .

وانصرف بودلير مبليبل الخاطر . وبلغ إلى داره في شارع فانو Vaneau مهتاج الشعور مشبوب الخيال . لقد انطلقت في نفسه نزعة عارمة هوجاء . هذه المرأة بقامتها المخطوطة المتين أقامت قيامته . إنها الصورة العالقة بذهنه للنساء الوطنيات في جزيرة موريس في المحيط الهندي ، وقد ظلت صورة أجسامهن ومشيتن طويلاً كالوسواس الملازم مسلطاً على نفسه معذباً لحسه . لقد ذهل بودلير عما كان يفكر فيه من عظة ماضيه . وانصرف عما كان يدبره لمستقبله . نسي كل شيء إلا هذه المرأة .

وليس من شك في أن جان ديفال دهشت لما تكلفه هذا السيد من أدب في تصرفه معها ، وللباقة من الزهر والبطاقة الناطقة بالاحترام . ذلك شأن لا عهد لها به . وزاد دهشتها حين حضر للمسرح . إنه أخذ يتحجب إليها ويتصباها بالإشارة اللطيفة والكلام الغزل . وهو — إلى هذا — فتي وسيم ، غض الإهاب ، سبط القوام ، فاحم الشعر ناصع الجبين ، له نظرة عميقة نافذة طويلة الإمعان ، وفم أغر الثنايا ، وشفاه منفعة الحنايا فيها شهوة وسخرية ، وأنف أذلف خياشيمه رقيقة خفاقة ، وعلى ذقنه نونة غائرة ، تهفو على وجناته حمرة خفيفة إلى جانب زرقة عذاره الحليق المألور . كما أنه مترف الملبس أنيق الهندام ، شديد العناية بيديه نظرية وبأظافره تقليماً . وبالحملة فتي من أهل النعمة وأبناء البيوتات .

بدأت هذه المراسم من الفتي معها شاذة غريبة ، ووقعت لغته في

سمعتها غامضة معقدة . ففيم هذه الغزليات ؟ ولن هذه الاحترامات ؟ أترأه يستهزئ بها ! أهو مخبول ! ونظرت إليه نظرة فاحصة ، نظرة بنت الهوى تفحص العميل الجديد . واقتضى خبث هذه المخلوقة ألا تبيحه في ليلته من نفسها ما تبيحه للآخرين . وتصنعت الفتور من جهته . والعجيب أن هذا المرتاد لأحط بؤر الفساد ، الخبير بأساليب المماكسة والمساومة في أثمان الملذات ، ركبته الغفلة في هذه المرة ولم يفطن إلى وجه الحيلة . وأخيراً في ذات ليلة اصططحبته جان إلى غرفتها في شارع القديس جورج .

ولكن ، من ذا تكون جان ديفال هذه ، في أى أرض نشأت ، ومن ناسها ، وماذا جاء بها ؟ ؟ لا أحد يدري . وإنما يزعم الزاعمون أنها ولدت في سان دومنج (بجزيرة هايتى من جزائر الأنتيل الكبرى في المحيط الأطلسى بين الأمريكتين) . أما كيف قدمت إلى باريس ، وما أحاط بقدموها من ملابسات فلا يدري أحد من أمرها شيئاً .

ولقد اختلفوا حتى في وصف شخصها . فيقول بانفيل على عادته من التجميل « إنها جارية مولدة ، مديدة الشطاط ، غريرة رائعة ، تعلوها جمة شعر مفلفل . وهى تختال كالملكة ، بل إن مشيتها تجمع بحسبها النافر سماء الألوهية والحيوانية معاً » .

ويذكر براروند (Prarond) في اعتدال « أن جان لم تكن بالمفرطة السمرة ، ولا المفرطة الحسن ، شعرها أسود جعد ، ويكاد صدرها يكون أمسح أجب . مديدة القامة . لا تحسن المشية » ويقرر جيل بويسون (Jules Buisson) كالمستنكر « أن لها وجنتين ناتنتين ، ولوناً أصفر كالبيا ، وشفتين حمراوين ، وشعراً وحفاً متموجاً في حد العودة » .

ولكن مالنا وهؤلاء الشهود ، وعندنا رسوم لها بريشة بودلير ، وبودلير يرسم بيد متمكنة ثابتة . لقد ورث الملكة عن أبيه الذى كان بعد اعتزاله

الوظيفة يسمى نفسه في شجاعة رساما . ولئن لم تكن صورته التي رسمها لجان ديفال بأبداع الرسوم إلا أنها تشعرنا كل الشعور بالقوة البهيمية في هذه المرأة ، لاسيما الصورة التي كتب في أدناها كلمة قالها القديس بطرس في وصف الشيطان (يطلب إنساناً يفترسه) ، وهي في هذه الصورة ذات عينين سوداوين نجلاوين « أشبه في سعتها بقصاع الحساء » على حد تعبيره ، وشعرها غيب حالك جثل كاللبد ، وأنفها أذلف ، وشفتاها غليظتان باللحم ، وثدياها ناهدان متباعدان بارزان على صدر أعجف . أما قدما فأهيف لدن المعاطف يتعارض وروادفها اللفاء المكتنزة ، وبالجملة فهو جسم هلوك فاجرة لا تشبع لها نهمة ، جسم عرف كل شيء ، واستباح كل شيء ، تعلوه طلعة بليدة ماكرة . أما العقل فعدم ، أما القلب فعدم ، وهذه هي المعشوقة التي افتنن بها الشاعر .

هنا يعاود القارئ السؤال ، ومن حقه ألا يقضى عجبه ، وأن يديم تساؤله : « وماذا أوقعه في عشقها ، إذا كان هذا وصفها ؟ »
فنعيد هنا أيضاً ما سبق أن ذكرناه من عودة الشاعر الفتي منذ عام أو يزيد قليلا من الرحلة التي أجبره عليها أهلوه سدى ، لاستصلاحه وصرفه عن الشعر ومزاولة الأدب ، وفي هذه الرحلة الإجبارية على مركب من المراكب التجارية ، دار الشاعر حول القارة الإفريقية وجاب بحر الهند وهر بمدغشقر وجزيرتي موريس وبوربون ، ومن هذا السفر الطويل الشقة احتقب الشاعر كما قدمنا وهجاً حاراً بقي زاده وعتاده طوال حياته ، وخيالاً باهراً لبث نجى يقظته وسمير أجلامه حتى مماته ، فقد راعته تلك البلاد النائية بشمسها الساطعة ، وبلياليها الصافية الساحرة تتلأل فيها النجوم قريبة دانية ، وبالنباتات الباسقة الهائلة الفاغمة الشدا ، وببوت الأصنام العجيبة وتهاويل الآلهة المسوخة المعبودة ، ولحج المحيط الهندي الزرقاء الرجراجة ، المطردة الهزج والتراتيل ، وهاته الشخصوس السمر

المتراثة بأجسام ممشوقة نصف عارية ، مؤنزة برياط ملونة زاهية ،
وسائر هذه الطبيعة التي لم يعهد لها بكل حرارتها وقوتها وغنى ألوانها .
فلما أن حم القضاء وقعت نظرتة على جان ديفال هذه ، تحرك
حنينه إلى مجالى الطبيعة فى تلك الآفاق ، وهفا حسه إلى ما فاته من حياة
الغريزة بين أحضانها ، فهيامه ليس هياماً بها وحدها ، بل بكل تلك
الآفاق من طلاقة غريزة وفتنة طبيعة ، وهى ليست امرأة فحسب ، إنما
(آسيا المتفترة ، وإفريقية المحرقة) . وحسب القارئ أن يسمع إلى قصائده
فيها ، ليتمثلها كما هى فى خيال الشاعر ، فهى عنده الشمس العظيمة
الساطعة على البحر اللجى ، وهى سعف النخيل المتأودة فى نفحات النسيم
الساخن الوافى ، وهى شذا المسك الأذفر يتضوع فى جنح الليل . . .
وبعبارة موجزة هى جميع ما أحسه واجتلاه واستنشاه فى أيامه ولياليه فى
تلك الجزائر الساحرة :

« حين آكون فى ليلة دفئة من ليالى الخريف إلى قرباك
« أستنشق مغمض العينين شذا صدرك الحار
« تتراعى لى شواطئى سعيدة
« تسطع عليها شمس صالبة متوهجة شديدة .

* * *

« هى جزيرة متفترة كسلى
« حبتها الطبيعة أشجاراً فريدة وثماراً شهية
« ورجالا أجسامهم ممشوقة قوية
ونساء يخلبن اللب بنظرتهن الغنجة الناطقة

* * *

« ويحملني شذاك إلى آفاق ساحرة
 « فكأنني بمرفاً يحفل بالقلوع والبصواري
 « وهي لما تزل منهوكة من عراك الياجج
 « وهذا أريج شجر التمر هندي
 « متضوعاً في الفضاء يفغم حسي
 « ويمتزج بأغاني الملاحين في نفسي » .

فكيف يقوى الشاعر على ترك هذه المرأة ، وهي هذا العالم جميعه عنده ؟ إن مظهر التسليم والخضوع المعهود في أمثالها من الحوارى الحلاسيات ، وعادة التضمخ بالطيب المركبة في غريزة النساء البدائيات ، كان فيها شبع حسه ومنطلق خياله . وإلى هذا وذاك ، جسدها الممشوق المبتل ، الجزل التقاطيع ، وما يعرضه هذا الجسد تحت نظر الفنان من الخطوط والاستدارات في سكونه ، ومن شتى التواليف المتغيرة المتقلبة في تشنيه وحركته ، يستطيره العجب إذا سكنت في ضجعة من ضجعاتها فردد هتافه :

« إني مبغض للحركة التي تنقل الخطوط من مواضعها » .

ويستخفه الطرب إذا هي خطرت أمامه فيغنى أغنيته المرقصة :

« من رآك في غير تكلف تخطرین

« حلوة الاسترسال على السجية

« يحسبك أفعى ترقصين

« على طرف العصبية » .

فهو مجنون بها ، متيم في حبها على الحالين : حالها وهي مقبلة مدبرة

في الغرفة ، عارية القدمين ، ولبد شعرها الكثيف مرسل أشعث ، تخطر
 خطرتها ، رافلة في غلائلها النفيسة التي تفرغها على جسدها مباشرة دون
 عناية بها وتكلف لهندامها ، وحالها وهي مضطجعة على الأريكة صامتة
 جامدة ، شاخصة العينين في الفضاء بنظرة قاسية براقة مظلمة ، حيث
 تأخذ الشاعر بغموضها وفجورها ، وتروعه بجمودها وضراوتها :

« في غلائلها الهفهافة الملائثة
 « تمشي مشيتها فتحسبها راقصة
 « كتملكم الأفاعي الطويأة المائسة
 « يرقصها على أطراف العصي حواة المعابد المقدسة

* * *

« وتارة هي كالرمال الموحشة ، وقبة السماء على الصحراء
 « كلاهما لا يحس ما ياقى ابن آدم من برحاء
 « وكغوارب الموج المتدفقة المطردة في صفحة الدأءاء
 « تضطجع مسبكرة متمدة في غير اكتراث

* * *

« في عينيها البراقتين جاذبية كأنهما من معادن سحرية
 « وفي ذاتها يأتلف الملاك الطاهر الكريم
 « وأبو الهول ، الحيوان الطائر ، ذو اللغز القديم
 « وكل شيء فيها ذهب وفولاذ وبريق وجوهر

* * *

« ويشرق مدى العمر في تلك الذات الغريبة الرمزية

« إشراق الكوكب المهدور الضياء في القلاة اليهماء
 « ذلكم الجلال الخامد في المرأة العقيم » .

فالشاعر كما رأينا واقع في أسرها ، مترام عند قدميها ، يعبدها بجملتها ،
 ويعبدها في دقائقها وتفصيلاتها . ولو كان يتسع لنا المجال هنا لأوردنا
 قصيدته (في شعرها) : تلك الجملة الوافرة ، والأجمة العاطرة ، وبحر
 الآبنوس اللجى . ورواق الليل الدجوى — ولأثبتنا نظمه (في حليها)
 تلك الحلى المصلصلة الموسوسة بصوت ساخر ظافر ، اللامعة المتألقة بالمعدن
 والجواهر ، جامعة في السمع والعين بين الرنين والبريق — ولسقنا أوصافه
 لعينيها ، وحاجبيها ، وشفتيها ، وكل جزء من تقاطيع جسمها ، وانعكاسات
 الألوان عليها في كل ساعة من ساعات النهار ، من سدفة السحر إلى ورس
 الأصيل ، ومن ضوء القمر الناعم إلى نار المدفأة — فضلا عن مشيتها ،
 وكل حركة من حركاتها ، بل كل لفطة باطنة من لفئات لحسها الغادر
 ونفسها المظلمة . ولقد يتكرر ما يصفه منها ، ولكنه لا يتكرر إلا ليفيد
 مزيداً في الإيضاح وإحاطة بنواحي الموضوع . وحسبنا على سبيل الإيضاح
 أن نورد بعض إشارات — في تشبيه بها — إلى رائحتها . فهي شتى لا تكاد
 تخلو منها قصيدة من قصائده فيها . ولقد تغزل بودلير في غير واحدة من
 النساء ، ولكنه لا ينحص غير هذه السمراء بنت البلاد الحارة بهذا التنويه
 برائحة عبيرها :

« على جسديك يحوم العبير »
 « كما يحوم حول المحمرة متصاعداً البخور » .

وفي قصيدة أخرى :

« يا لشعرها ! يا للعطر المشبع بالفتور !
 « لئن هفت النفوس مع حلوا النغمات

« فإن روحى — يا حبيبى — تسبح من عطرك فى غمرات »
وفى أخرى :

« شعرك الأثيث الكثيف الغور »
« ذو العبير الفاغم الحاد »
« كبهر من العطر رجراج لا يستقر . »
« أمواجه من زرقة وسواد . »

وفى غيرها :

« ومن فرعها إلى قدمها »
« يتضوع حول سمرة جسمها »
« نفحة فاغمة وشذا ذو خطر . »

بل شاعت حاسة الشم الدقيقة التى رزقها الشاعر أن يخرج من التعميم إلى التخصيص . فذهب فى وصفه رائحتها إلى حد تحليلها وتحققها .

« أيتها الربة العجيبة »

« السمراء الإهاب مثل جنح الظلام »
« الممزوجة العطر بمثل رائحة المسك والتبغ . »

وهذا من جهة الأوصاف الحسية . أما من ناحية الأوصاف المعنوية فهو يردد معنيين يستهويانه فيها . هذا الكسل الذى يتعارض مع نشاط الغرب المحموم وهو يسميه (الكسل الحبيب الحافل) ، ثم سياء الحزن وهو عنده نظير الحسن . ولا اجتماع الحزن والحسن عند بودلير معنى بليغ الأثر فى نفسه ، ولا بأس بعد ذلك على صاحبتيهما من الجهل وبلادة العقل :

« ماذا يعنيني عقلك
 « كوني جميلة وكوني حزينة » .

وغنى عن البيان أن جان ديفال لم يكن لها هذا الشأن إلا في عيني الشاعر — ولا نعى مطلق الشاعر ، بل بودلير بعينه . وذلك بحملة الأسباب التي أوردناها بما كان لها من التأثير على مزاجه وخياله . ولكنه كان مع هذا عسيا أن يتركها بعد حين إلى سواها ، بعد أن عرف ما عرف من انحطاطها وخبث نفسها ومقاذر خيانتها له ووبالها عليه ، لولا أن هناك سبباً آخر هو سر من الأسرار الخفية المخزية يقيده إليها . ذلك السر هو أن انحطاط هذه المرأة عنه بما لا يقاس ، ثم أفانين تهتكها بلا حد جعلها من ضعفه قوة ، وتغلبا على حياته ، فذاق في قربها متعة لم يدقها كاملة ناهكة إلا بين ذراعيها . فهو من أجل هذا يحبها هذا الحب كله . وهو من أجل هذا يحتقرها ويحتقر نفسه الاحتقار كله . وفي سبيل هذا انقلبت حياته طوال الأيام التي عاشها أعنف ساحة وأدماها لعراك الخير والشر ، والنور والظلام . ولن يضل قارئ شعره بعد افتتاح سره عن فهم عباراته المقتضبة المتقطعة ، وإشارات الموجزة القاطعة ، وتشبيهاته الممسوخة ، وتهاويله الغريبة ، ونوازه المتضاربة ، وتمرغه المستهتر في حمأة الدرك الحيواني مع تهله الباطن للفجر الروحاني وسناه الشعشعاني .

في قرارة الهاوية

رغب بودلير في أن تهجر جان ديفال المسرح لتكون له خالصة . ففعلت غير خاسرة . لقد كانت في الطبقة الدنيا من بنات المسرح ! وما نزلت بهجرانها التمثيل عن مستقبل زاهر ولا عطلت ملكة مرجوة ، واستتبع هذا بطبيعة الحال التزامه بها وهو وقتئذ لا يزال موفور الرزق من حصته في مال أبيه . ولما كان بين شارع فانو الذي يقيم فيه الفتى ، وشارع سان جورج الذي تسكنه الفتاة ، شقة بعيدة مع صعوبة أسباب الانتقال لذلك العهد ، فقد دبر العاشق الأمر . فأتخذ جناحه الذي أشرنا إليه في الفندق الفاخر المعروف باسم لوزون أو بيمودان ، وأث لها سكناً أنيقاً في الشارع المجاور ، شارع المرأة بلا رأس (وما أليق التسمية بها) . وقد أثر الشاعر المجاورة دون المساكنة ، حرصاً منه على حرите وعلى أغراضه الأدبية العظمى وما تتطلبه من تفرغ للدرس . ووافق ذلك هوى جان أيضاً ، حتى لا تكون ليل نهار في عشرة هذا المفتون الذي لا يني يسود الصفحات بالكتابة ، أو يفيض في كلام غير مفهوم . فحسبها أن يذهب إليها كل ليلة ويعود منهوكة وهي مطمئنة إلى بقائه لها ، عليمه بما يقيدته إليها .

وزادت مطالب المرأة . وكان بودلير بطبعه ، تلاقاً يتسرب المال من بين أنامله جزافاً ، فبدد في هذه المدة الوجيزة أكثر من نصف ميراثه وخشى الساهرون عليه من العاقبة وهو سادر في غلوائه ، يتلف صحتا وشرفه وشبابه . فرفعت أمه وزوجها الأمر إلى مجلس القضاء في سبتمبر سنة ١٨٤٤ إنقاذاً له من سوء المصير . فأقر المجلس حرمانه من التصرف في البقية الباقية من ماله وقضى له بريعه ، وذلك تحت إدارة أحد مسجل

العقود من أصدقاء الأسرة . ولكن هيهات يفي الريع بنفقات الخلية ونفقاته . ولقد كان العراك ينشب من حين لآخر بينهما فاشتدت بعد ذلك حدته وتقاربت فتراته . وانحدر في مهاوى الدين فطفق يستدين ولا يوفى . وإذا وفي القليل عاد إلى استدانة الكثير . ولم تسلم أمه من مطالبه ، فظل يلاحقها حتى آخر لحظة من حياته . وهي توجه إليه في الخفاء اليسير الذي تدخره ، مشفوعاً برسائل منها يلطف حنانها ما تتضمنه من ملام . فيلقى الفتى بالرسائل دبر أذنيه وينفق المال على المحظية قعيدة شارع المرأة بلا رأس . وكان بودلير على الدوام شديد الشغف بالنبيذ الأبيض ، فزاد عليه معاقرة الخمور القوية وأنواع الكحول ، وإدمان القهوة والإكثار من التدخين . وكأنما هذا لم يكفه فعمد إلى الأفيون يتعاطى خلاصته ومركباته ، ثم انتهى أيضاً إلى القنب الهندي — وكان بدعة العصر في باريس — فانتظم في نادي الحشاشين في فندق بيمودان يستمتع بهذا العقار العبق المخدر ، في صحبة من أصحاب الفن وغيرهم ، وهم جميعاً أصلب منه بنية وأمتن أسراً ، فإذا أوى آخر الليل إلى جان استأنف معها المعاقرة والانغماس في الموبقات كما يجدر بفتاة مثلها من الساقطات .

هذا كله وضيع موجه . وهو يحس ضيعته ووجيعته أشد الإحساس ، ولكنه معذب العاطفة ملتاث الأعصاب . فإذا نجا بنفسه وطلب الخلاص من الرذيلة شعر بالوحشة المطلقة والفراغ المرهق ، فيعود على رغبه عودة الملهوف ، رافعاً إلى (ربة الحسن السوداء) أحر التوسل والرجاء ، ويناجيها هائماً ناقماً مستعطفاً :

« أهيم بك هيامى بقبة الليل
 « يا آنية الحزن ، يا حليفة الصبرمت !
 « وزاد في حبيك أنك تجافيني

« وأنت يا زينة ليالى - فى جفناك وسحرك
 « تباعدى الشقة بين ذراعى
 « وبين سمواتك الداجية الصافية

* * *

« ولكنى أبداً عارج نحوك أسورك وأصعد إليك
 « كما يصعد إلى البشة فوج من الديدان
 « أنا - أيتها الضارية التى لا تشفى لها غلة
 « عاشق وامق أهوى حتى جفناك
 « فأنت به أبداع فى ناظرى وأروع »

وكان الشاعر من هيامه بها يتوسم فيها إلى جنب رذائلها الفاضحة
 الجمة بعض الخصال الطيبة . فإذا به يفجع فى هذه البقية فقد تكلف
 أن يعلمها ، فإذا هى مغلقة الذهن مؤثرة للجهل لا ينفع معها تثقيف .
 وهى تقرأ خطابات وتفتش ثيابه وتفتح أدراجه لعلها تجد فيها ما تستخدمه
 يوماً ضده . وهى لا ترعى له عهداً ولا تحفظ له جميلاً ، ولا تدعه لحظة
 يفرغ إلى عمله ، وتفعل كل ما فيه مضايقته ، حتى كان ينام نهاراً ليقوم
 بالليل وهى نائمة يعالج بعض الكتابة المطلوبة منه . ولا يقع نظرها فى
 نظره حتى تقع بينهما شر المشاحنات . ولقد بلغ من إثارتها له أن أهوى
 عليها بشمعدان ، وصددم رأسها بالمنضدة صدمة شجته . وهو يحمد الله
 - كما قال فى خطابه لأمه - على خلو بيته من سلاح نارى وإلا فإنه
 لا يدرى ما كان فاعله فى مثل هذه الثورات التى تسوقه هذه المرأة إليها فلا
 يكاد يملك نفسه .

وفى ثورة كهذه نظم الشاعر العاشق المقطوعة الآتية وهى صرخة اليأس

العاني ، لا قوة له على الخلاص من هذا الإسار أو تموت أسرته . لا خلاص
إلا بقتلها ! وإنما للفكاك من ذراعيها يفكر في الإجرام لا لشهوة الانتقام :

« أيتها الداخلة في قلبي الشاكي كطعنة سكين

« المقبلة في قوة كعصبة من الشياطين ،

« المفتونة المتبرجة

« اتخذت سريرها وملكها في عقلي الراغم المسكين

* * *

« أيتها الساقطة التي أنا موثق بها

« كالسجين بأغلاله ، ورهين المقامرة بالمقامرة

« والسكير بزجاجة الشراب ، والديدان بالحيقة

« لعينة ، لعينة أنت !

* * *

« ناشدت الحنجر القاطع أن يمكنني من حريري

« وهتفت بالسم الزعاف أن يغيث نذالتي

« فأزري بي السم والحنجر وناجياتي :

« لست أهلا لإعتاقلك من أسرك المنكر

* * *

« يا مأفون ! — لو عملنا على موتها

« وإنقاذك من سلطانها

« لأحييت بحرارة قبلاتك

« جثة معذبتك ومستنزفة دمك .

وعاش شارل بودلير وجان ديفال في صراعٍ صامتٍ للدود . ولم يكن
 الذى بينهما صراع الرجل والمرأة فقط ، ولا صراع الأجناس فقط . بل
 صراع الأنواع . ودارت المعركة بغير مهادنة ، معركة حياة أو موت ، معركة
 غرام يشبع جسده وتجويع منه نفسه .

شخصية مركبة

مهما يكن من انغماس بودلير في الشر الذي انغمس فيه ، فإنه كان محتفظاً - طوال العمر وفي جميع الأحوال التي عركته - بقوة يرتفع بها على تلك الغمرات المهلكات . فهو يخوضها ويوغل فيها مرتطماً مشرفاً على العطب ، ولكنه لا يدعها تبتلعه .

إنه عاش ما عاش بين أحضان الرذيلة ، ولكنه ما نسي العمل قط . ولا عبرة بأنه لم يعرف في المدرسة بالاجتهاد ، ولا عبرة بأن أهله لم يعهدوا فيه إلا فتي فارغاً خالياً متبطلاً ، ولا عبرة بأن الأكثرين لم يروه إلا متطرفاً عابثاً لاهياً ، بل لا عبرة بأنه هو نفسه كان دائم الشكوى من عدم استطاعته حمل نفسه على العمل فالعمل ليس واحداً . ونعني العمل عند أهل الفنون أنفسهم . فن الكتاب من كانت لهم ساعات كل يوم للكتابة والتأليف . بل نجد بين الشعراء فكتور هيجو يقف إلى منضدته في كل صباح وقفة النجار ، يحك بريشته المتخذة من قوادم الأوز صفحات بعد صفحات ، لا يتوقف إلا ليزدرد كعادته بيضة في الحين بعد الحين ، ثم يستأنف النظم ، مع ما هو مطلوب في الشعر من صناعة واستلھام ، وذلك طول سني حياته وما كانت حياته بالقصيرة . هذا مثل للعمل ومثل رائع . ولكنه ليس المثل الوحيد . فهناك ما يشبه للناس أنه الكسل ، ولكنه الكسل الخصب ، أو - بعبارة أخرى - العمل السلبي وأقرب الأمثلة على ذلك بودلير . فإن بودلير مع اتهامه نفسه بالكسل ، كان من أداب الناس على العمل ، بل كان مطبوعاً عليه . فهو منذ الطفولة لم يسمح لنفسه أن تستريح ، بل كان دائب الدراسة لأمه ، يحلل عواطفها ، ومواقفها من أبيه وابن أبيه وخادمة أبيه المتسلطة على تدبير المنزل ، ثم مواقفها منه بعد وفاة الزوج الشيخ وبعد ذلك منذ اتصلت

بزوجها الحديد . وكذلك كان في سائر علائقه بالناس ، بل في أخص لحظات لذاته وصرعات شهواته ، يقظ الفؤاد صاحي الوعي ، لا يكف عن الدرس . فهو من تلقائه وفي غير كلفة ، يستقصى موضوعات حسه ويسهر أغوار نفسه .

هذا من ناحية العمل السلبية . أما الإيجابية فحسبنا أن نرجع إلى أصول منظوماته وما أدخله عاينها المرة بعد الأخرى من التنقيح والتهذيب ، شأن المنتطس لا شأن الموسوس . فإنك ترى اللمسات التي تزيد القلب حسناً والمعنى صدقاً ، فإذا البيت من الأبيات بعدها أطبع وأصنع . وما كانت هذه التوفيقات لتقع إلا بدوام الطلب ، وإيقاظ الذهن لها ودوام التفكير فيها ، مع استفزاز الخيال وتدقيق الذوق . وبودلير كان يفعل هذا طول الوقت . ولكنه كان لا يفعله وهو إلى منضدة العمل . وإنما يفعله وهو متسكع في طريق ، ومتبطل في المقهى ، بل في أحضان جان ديغال .

ولم يكن أبغض إلى بودلير من التكسب بالكتابة . فكان الرجل الممتاز في نظره هو صاحب الفراغ والثقافة الواسعة ومن يتوافر فيه الغنى وحب العمل . فلما غاضت موارد بودلير من بقية ماله الموروث ، منذ وضعت هذه الموارد في يد قيم من أصدقاء الأسرة لم يكن يصرف للشاعر إلا ما يقيم به أوده وينى بالتكاليف الضرورية لحياته اليومية ، دون حساب لنفقاته الكثيرة على نفسه وعلى خليلته السوداء السكيرة ، لم يبق أمام شاعرنا الهاوى إلا احتراف الكتابة لكسب معاشه ، ولما كانت له منذ أحداثه الأولى في منزل أبيه ألفة باللوحات الفنية وقد لازمه هذا الحب للتصاوير طول صباه ، ثم كانت بعد ذلك معرفته لارسام « ديروي Deroy » وتردده معه على مراسم الرسامين والمثاليين وغشيانه في الحى اللاتينى للمقاهى التي تغص بالنقاد والفنانين فلا عجب إذا رأيناه يسترعى أنظار أهل المعرفة حين طرق النقد الفني بما نشر عن « معرض ١٨٤٥ » « Le Salon de 1845 » من مقالات

تمتاز بالأسلوب المتين القوى المنعق الطلى معاً ، كما تمتاز بما تتضمنه من أفكار جريئة وحصيفة عن أعمال الفنانين ثم أعقب ذلك بعد عام بمقالات عن « معرض ١٨٤٦ » ، تفوق فيها على نفسه فضلاً عما ديجيه من الفصول الأدبية في شتى الموضوعات ومنها قصة « فانفارلو Le Fanfarlo » التي ظهرت في يناير سنة ١٨٤٧ .

وعلى حين فجأة انقطع سياق هذا النشاط المطرد الذى كان ديدنه فى تلك السنوات ، وكان السبب اشتغاله عن الأدب بالسياسة التى كان حتى هذه الساعة غريباً عنها لا يفكر فيها فلقد جوفه ذلك التيار الفوار الجياش بالانفعالات والأفكار الذى أدى إلى ثورة فبراير سنة ١٨٤٨ ولم يكن لشاعرنا عن ذلك مندوحة فقد كان يسكن وسط حى الطلبة فى باريس ويتردد على مقاهى الضفة اليسرى وكانت تربطه أوثق الصلات بالكثير من الكتاب والشعراء من الحزب الاشتراكى . بيد أنه لا يستبعد أن يكون هنالك فى الوعى الباطن سبب كامن بعث الشاعر إلى المشاركة فى الثورة ضد الملكية ، وهو كراهته لأحد قوادها وهو زوج أمه الجنرال أوبيك . ويرجع ذلك ما زعمه بعضهم من أنه رأى الشاعر وفى يده بندقية جديدة وهو يصبح وسط جلبة الثوار « هيا نعدم بالرصاص الجنرال أوبيك » وأيا كانت حقيقة الحال فإن بودلير لم يلبث أن عاد إلى الاشتغال بالشعر والأدب والنقد الفنى والاستغراق فيها دون السياسة كسابق عهده .

وكان بودلير قد أخذ يقرأ منذ عام ١٨٤٦ ما كان يظهر فى الصحف والمجلات الفرنسية من تراجم لقصص الشاعر الأمريكى المعاصر « إدجار ألان بو "Edgard Allan Poe" » وما كان يخلعه الكتاتيون على مؤلفها من عبارات التقدير والإطراء ، وكان بودلير قد تعلم الإنجليزية منذ طفولته ، ولما كان ما قرأه للشاعر الأمريكى فى تلك السنة قد حرك نفسه من أغوارها فقد لجأ بودلير إلى بعض الأمريكان المقيمين فى باريس

لإعارته مجموعات الصحف والمجلات التي كان « بو » يديرها أو يكتب فيها إذ لم تكن أعماله وقتئذ مجموعة في كتاب . وكم كانت دهشة بودلير عظيمة حين وجد للأديب الأمريكي قصائد وقصصاً يؤكد بودلير أنها سبق أن وردت على خاطره ، ولكن في صورة مختلطة مشوشة بهمة ، على حين أحسن « إدجار بو » نظمها والبلوغ بها إلى حد الكمال . ولم يابث أن عكف الشاعر الفرنسي على ترجمة ما يقع تحت يده من مؤلفات الشاعر الأمريكي . وكان أول ما نشره من تراجمه في مايو عام ١٨٤٨ ثم ظلت هذه التراجم شغله الشاغل سبعة عشر عاماً ، حتى قبيل وفاته .

وعلى الرغم من أن هذه المقالات الفنية والفصول الأدبية ، فضلاً عن الترجمات عن الإنجليزية ، قد كتبها بودلير تحت ضغط الحاجة إلى المال ، فإن بودلير لم تفارقه طبيعة التجويد . فكان ينتج اليسير بعد الجهد الكبير . وكانت الصحف التي يرأسها ، فضلاً عن الناشرين لا تعطى الكثير ، فهان عليه أن يستدين ، ويلجأ طوال الوقت إلى أمه ويطرق باب أصدقائه . هان عليه التفريط في كرامته إنساناً ، ولم يهن عاياه التفريط في كرامته فناناً . وما كان ذلك الاهتمام منه مقصوراً على توليداته وبنات أفكاره ، بل اشتمل كذلك على ما اضطاع به من تراجم لأقاصيص الكاتب الأمريكي إدجار بو Edgar Poe . ولقد تعجل ذات مرة في تقديم بعضها للنشر لحلول الموعد المتفق عليه مع الناشر ، وقبض منه الأجر . فلما اطلع على تجارب الطبع لم يرض عنها تدقيقه ، واستولت عليه وساوسه ، وملكه شعور بالتحرج والإثم ، وغايه حب الكمال ، فوقف طبعها ودفع مصاريفه على قلة ما بيده ، وانفسخ العقد الذي بينه وبين الناشر وساعت عنده سمعته . وهو في أثناء ذلك يعاني أشد الفاقة ويكاد يموت من البرد لعجزه عن شراء وقود للمصطلي ، وقد رثت ثيابه حتى كان يخشى عليها أن تتمزق من أدنى حركة . ومن المحقق أن بودلير في أخذه نفسه بهذه الشدة . والمبالغة في

التدقيق والتجويد ، لم يكن ينظر في ذلك إلى إرضاء القراء ، فإن سوادهم الأعظم أميل إلى الترخص . ولكن حاسته الفنية كان يؤذيها القصور والنقص ، وتنشد في كل شيء التمام والإحكام . ومن أقواله هذه النبذة : « كان للمستبد الروماني نيرون عادة محمودة . فقد كان يجمع في الساحة العامة للألعاب جميع الشعراء المقصرين السخفاء ، ويجلدهم بمشهد من الملأ » . والقارئ لا شك يلمس في هذا الذي أورده بودلير مبلغ إيمانه بالواجب للفن وشدة تعصبه له .

وننتقل إلى جانب آخر من شخصية بودلير المركبة . فالذي يطالع على أخباره ويقرأ على الأخص مجموعة أشعاره ، لا يشك في أن بودلير المستهتر كان في نفس الوقت متصوفاً . فهو قد جمع بين ما كان في أبيه من طبيعة وثنية ، وبين ما كانت عليه أمه من روح مسيحية . وهو في حبه للجمال لم يكن بأقل منه حباً للخير . والقارئ لأوصافه المتوهجة للذيلة يحس أنه يتعذب بنارها أكثر مما يتلذذ بها . وأنها ليست له بالمستقر ، ولكنها المطهر . فانغمسه في الرذيلة إنما هو حركة اليأس وطلب للنسيان وضرب من الانتحار ، وإلا فهو أشد الناس شعوراً بما تتورط فيه الحياة الدنيا من إسفاف وما تجره على النفس والجسم من تلويث :

« انهم هبى القوة واشجاجة

« فأنظر في قلبي وجسمي بلا اشمئزاز »

ومن يقرأ كلام بودلير في مذكراته الخاصة عن المتعة الجسدية ، وما يعقده من شبه بينها وبين التعذيب والعملية الجراحية ، يدرك أن شهواته ذهنية أكثر منها جسدية . وجملة القول في مثله ، أنه رجل من أهل المعاني مغرق في هوة المادة يتخبط فيها وطرفه شاخص إلى السماء . ومثل هذه الطبيعة المزدوجة ، مع تفرزها إلى اللذة لا تنهى قط عندها ولا تجمد عليها ، بل لا تزال تذكر أغاني المهد وتدلّل الأم وتتطلع إلى الحب الصادق الرفيع .

ملاك الخير ربة الحب البيضاء

ما برح بودلير منذ صباه الأول ذا شهوة منهومة إلى العطف والحنان . فلما أخطأه الحنان أوتوهم أنه أخطأه ارتقى في أحضان الرذيلة يلتمس فيها من الحنان بديلاً . وفي رسالة من رسائل بودلير الأخيرة إلى أمه يشير إلى هذا الذى ترتب على حرمانه وهو فتي من كنفها وحنانها إذ يقول : « تركت المنزل أبقاً ، فكنت منذ ذلك الحين مقصياً مهجوراً ، فانصرف كل هيامى إلى اللذات ودوام الغواية . . . » ولقد بلغت هذه اللذات قممها في جان ديفال ، فذاق حلوها ومرها وعرف نشوتها وخمارها . ثم أخذ المر يغلب على الحلو ، وزاد الخمار على النشوة . وفعل الزمن والإسراف فعلة في الجارية المعشوقة ، فلم تعد تلك « الربة السوداء » التى عهدناها . لقد أدركها الكبر ، وذهب غيدها وكثف جسمها وثقلت نهضتها ، ثم هى اليوم أشنع ما رآها سوقية ، وأقبح رذيلة ، وأمعن كذباً ، وأنكى شراً .

فأخذ بودلير يكره عشرتها ، وصار عزمه يقوى على فرقتها . وساعد على ذلك أنه وجد أخاً له فى الروح هو الشاعر القصصى الأمريكى « إدجار بو » . الذى استغرق حواس شاعرنا بالخيال الشارد والصور المفززة ، فافتن بمطالعة وشغل بترجمته . يضاف إلى ذلك أنسه بأمه . فإن مدام أوبيك بعد رحلتها البعيدة مع زوجها سفيراً فى تركيا ثم فى إسبانيا قد عادت معه بعد اعتزال الخدمة إلى باريس ، حيث أنعم عليه الإمبراطور نابليون الثالث برتبة الشرف (اللجيون دونير) وجعله عضواً فى مجلس الشيوخ . فتجدد اللقاء بين الأم وولدها كما كانا قبل سفرها ، يتلاقيان فى المتاحف

وبخاصة متحف اللوفر شتاء وفي الحداثات أيام الربيع ولقد تركت هذه
المتنزهات ولا ريب أثرها الخلو في نفسه. فإذا عرضت للقارئ في رسائله
مثل هذه العبارة « لا تحلو باريس إلا في جلوة الشمس بحداثتها المونقة
البديعة ». فليعلم القارئ أن هذه العبارة ليست منه مجرد استحسان في ،
بل هي تنطوي على شعور عميق شخصي .

وأحس الشاعر بحاجة غامضة - وإن تكن قوية - إلى حياة غير
الحياة التي عاشها حتى الآن مع جان . أحس بالحاجة إلى أن يتصل بالمرأة
لا عن طريق الجسد وحده بل عن طريق القلب ومبادلة الحب بالحب . إنه
ينشد الحبيبة لا الشريكة في المنكر . لقد سم هذا المنظر ، سم مشهده
المتكرر وأناي حيثما ذهب في « رحلته » :

« كل ما استرعى منا العيون

« دون تكلف للبحث والطلب

« في حيثما نظر الناظرون

« ومن أعلى إلى أسفل طبقات الدرج المشثوم

« المعصية الأولى ، معصية الأبد » .

« تتراءى بمنظرها المتكرر المشثوم » .

أجل ، لقد طوى بودلير صفحة العشق السوداء ، وفتح بيد رفيقة
مرتجفة صفحة بيضاء . وفي هذه الصفحة تألفت وجوه ساذجة باسمه ، فيها
طيبة ونقاء ، وعليها مسحة السماء .

فثمة الأنسة ماري دوبرين Marie Daubrun الممثلة الناشئة ،
جميلة ، حلوة الطباع ، صادقة الحياة من ذوات الصون والعفاف ، تعمل
والديها الفقيرين المريضين بالعمل الشريف ، وتعود متعبة آخر الليل

قترعاهما وتسهر عليهما . وفيها نظم بودلير « أنشودة الخريف » وعرف أول ما عرف الحب العذرى .

وهناك ماري أخرى ، لا نعلم من أمرها شيئاً إلا وقوفها نموذجاً حياً للرسامين طلباً للعيش . ويظهر من خطاب بودلير إليها أنها زهدت في صناعتها بسببه ، وأنه فاتحها بحبه فهاج شجونها ولكن لغيره . ففضت تحدثه شاخصة العينين حاملة بما يشغل قلبها . تحدثه عن الرجل الآخر الذى استأثر بلبها ، واختصته دون الرجال بحبها ، فهي له خالصة الود ، حافظة للعهد . وسكرت حواس بودلير وهو يسمع حديثاً كان فى اعتقاده قبل اليوم حديث خرافة . فهو يهنف بها : « كوني كذلك دائماً واحرصي أشد الحرص على هذا التفانى فى الحب الذى خلع عليك الجمال كله والسعادة كلها » وإذا إعجابه الشديد بهذا التفانى يدفعه إلى أن يتمناه ويريده لنفسه « عودى ، أضرع إلبك ، عودى إلى . سألزم نفسى الترفق والتواضع فى رغائى ، وأشواقى » . ويردد فى حرارة : « لا تخشى شيئاً ، إنك موضوع عبادتى ، وعزيز على تدنيسك إني أحبك يا ماري ، والذى أحمله لك من الحب منزّه مثل حب المسيحى للرب . إنه حب لا كالحب . . . فلا تنعنى بهذا الاسم الشائع البشرى - الموصوم فى أكثر الأحياء بالخزى - هذه العبادة الروحية الخفية السر ، هذه الجاذبية الحلوة الطاهرة التى تقرب روحى بروحك على الرغم منك لقد هدتنى عيناك إلى سعادة الروح بكل ما فيها من لطائف وكمالات . . . أنت من نفسى شطرها الفائض من جوهر روحانى . . . بك يا ماري أصبح قويا عظيماً ، سأخلدها تخليد "بتاراك" لورا ، فكونى ملكى الحارس ، كوني سيدتى العذراء » . ولا يبرح خيال بودلير - وهو يكتب خطابه الطويل - منظر عينها وفمها وجميع شخصيتها فائز الحمية مشبوب الانفعال وهى تتحدث إليه حديثها عن رجلها الذى تحبه . فيقول قبل الختام : « سعيد ، سعيد



الزحوة البيضاء . . . مدام سبباتييه

للمرسم باري Barye

ألف مرة الرجل الذى اخترته بين الرجال ، أنت الراجحة العقل الوافرة
الجمال ، أنت الموموقة ذهنًا وقلبيًا وروحًا .

وسواء أكانت هذه الفتاة أهلاً لكل هذا أم غير أهل ، وسواء أكان
بودلير مغالياً فيما أظهره أم غير مغال — فإن ورود ما ورد من هذا الخطاب
من ألفاظ لا عهد له بها ومعان غريبة عنه ، دليل على أن الشاعر اليوم
غيره بالأمس ، وأنه فى طور ثان من حياته ، هو الطور الوجدانى العاطفى .

والمرأة التى يحق أن نسميها عروس شعره فى العهد الحديدى هى مدام
سباتيه Mme Sabatier وهى المعروفة بمجلسها الذى كان يضم نخبة من الأدباء
والفنانين فى عصرها والتى جروا على تسميتها بـ « الرئيسة La Presidente » .

وكان ميلادها فى ستراسبورج سنة ١٨٢١ . وهى السنة التى ولد
فيها بودلير ، فهى من لداته . ولا نعلم عن أسرتهما ولا عن أحداثهما
الأولى شيئاً . وأما مبدأ اشتهار أمرها فيرويه الرواة على الوجه الآتى :

كان بعض من يسمونهم « بالشباب الزاهر » وهم الروائى « روجيه
دى بوفوار Roger de Beauvoir » والشاعر « الفرد دى موسيه » والمؤلف
المسرحى « ارفرس Arvers » والمالى « هبوليت موسلمان Hippolyte
Musselman وغيرهم من شبان العصر الخطاريف — فى شرفة فندق ييمودان
الفاخر كعادتهم يسمرون ويتطلعون ، إذ خرج من مدرسة السباحة القائمة
على ضفة النهر ثلاث غوان حسان ، كانت إحداهن تلبس قلنسوة أرجوانية
من قلانس البندقية على شعرها الوافر الذهبى ، وكان شعرها مرصلاً ولا يزال
مبتلاً تلتمع الشمس فى ثناياه . فاشترأبت أنظار السادة إلى هذا السرب
من شوادن الظباء ، ودعوهم للمنادمة والسمر فاستجبين للدعاء . ولم تلبث
ذات القلنسوة الأرجوانية أن وقعت فى قلب المالى « موسلمان » موقع
الاستحسان العميق الصادق . وكان شاباً صبيحاً ظريفاً محباً للفنون الجميلة ،
فاتخذها له صاحبة وجهاز لها داراً فاخرة . وكان اسمها إجلال ولقب الأسرة

سباتيه أى الإسكافي "Aglaé Savatier". فلم يعد الاسم ولا اللقب فى معناه يروقانها . فتبسمت « أبولونى » أى شقيقة « أبولون » إله الفن اليافع الوسيم ، وحرفت لقبها فصار سباتيه . فهى منذ ذلك الحين أبولونى سباتيه :
Appolinic Sabatier

ومدام سباتيه كما قلنا من الغوانى الحسان ، مبتلة الخلق ، ممكورة الأعطاف ، لطيفة الأوصال ، رقاقة البشرة ناعمة ، تجمع إلى نصاعة البياض تورد اللون ، ولا يحتاج خداهما إلى صبغ لإذكاء حمريتهما . وشعرها بلون النحاس المجلو مع انعكاسات فى شعاع النور كشذور الذهب ، تتألق عيناها النجلاوان بنظرة فيها الزكاة والفطنة والحبث البرىء الصبىانى ، وهفو على شفيتها القروزيين ابتسامة ابتهاج عابثة . وكان أصدقائها يقولون مخلصين إنها خلقت لتكون مثالا ينقل عنه المثالون . ولم يلبث أن تحقق قولهم ، فقد وقعت عليها عين المثال كليسنجر Clésinger فى ليلة راقصة أقامها الروائى روجيه دى بوفوار ، وهى فى ثوب للسهرة شبه متجردة على المألوف فى مثل هذه الحفلات عند أهل الفنون ، فراحه منها استواء القوام واسترسال الأعطاف وحسن التقطيع . وأخذ عنها تمثاله « المرأة الملدوغة » ويمثلها مضطجعة وهى من لدغة الثعبان تتلوى . وعرض تمثاله فى معرض مايو سنة ١٨٤٧ . ولقد قامت القيامة يومئذ على الفنان ورده بالتحايل على إظهار الجسم فى أوضاع وحركات تثير الشهوات .

وإذا كنا نذكر ذلك فلأنه مثال من الأمثلة على بدء خروج الفنانين فى ذلك العصر على عادة المدرسة القديمة فى معالجة الصور العارية بتمثيلها فى عالم الخرافة على صورة الربات وجنيات الماء وحوريات الغاب ، وانصرافهم إلى الفن الواقعى وما لقيته موجة الفن الواقعى الجديده من احتجاج ومعارضة . ونحن لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن مدام سباتيه كانت من أشهر الحميلات فى أواسط القرن التاسع عشر ، وأنها كانت معروفة لجميع الفنانين ،

وكانت لا يكاد يخار معرض من صورة لها أو تمثال نصفي يمثلها . ولم تكن شهرتها مقصورة على جمالها بل تتعدى ذلك إلى حسن لبسها وأناقته هندامها . فقد كانت لا ترى إلا رافاة في الثياب الفاخرة ، وإن لم تلتزم فيها الزى الشائع التزاماً . فإن أصدقاءها من الفنانين كانوا يبتدعون لها خاصة ما يناسب طرازها من الجمال . وتتفق الأقوال على أنها كانت طيبة القلب بقدر ما كانت جميلة ، وأنها في حينها طلعت أشاعت حولها السعادة والبهجة . فلاغرو أن أصبح جناحها الذي تسكنه في شارع فروشوت Frochoi ملتقى الأعلام في عالمي الفن والأدب يسمرون عندها أيام الأحد ، نذكر منهم شاعرنا بودلير ، والشاعر الناثر الإبداعي تيوفيل جوتييه والروائي المعروف بعمق تحاييله وبلاغته أسلوبه « جوستاف فلوبير » والمنشئ المجدد ذي التفانين الغريبة « باربي دورفلي » والقصصي « أرنست فايديو » والأديب الرحالة « مكسيم دي كامب » والمثال « كايسنجر » والمصور « ميسونير » وغيرهم .

ومما كان يحجب هؤلاء الرجال في مجلس مدام سباتيه أنها كانت على غير المعهود في غايات المجلس لا تكلفهم دوام الاهتمام بها ولا تنتظر من كل رجل أن يتغزل بحسنها . فكانوا عندها على سمجيتهم ، إن شاءوا تبسطوا في السمر — وكثيراً ما كان يخرج به جوتييه إلى قاحش الحجون — وإن شاءوا خاضوا في المسائل الجدية العويصة ، فلا يثقل نقاشهم عايتها ولا تحاول أن تصرفهم عنها إلى الموضوعات التافهة أو الأخبار الشخصية . ثم إنها مع إقرار الجميع لها بالجمال واعتمادها في الحياة عليه كانت بعيدة كل البعد عن الخيلاء والعجب . وكانت رحيبة القلب ، لا تضيق بأخلاق أصحابها ولا تريد لهم على غير طباعهم . ولم تفكر في إبان نعمتها أن تقبض يدها وتدخر لمقبل أيامها وخريف حياتها . ولما أخذت زهوها في الذبول ونقص حظها من غضارة الجمال فقل " معه نصيبها من العشق والمال ، لم يسقط في

يدها ولم تعدم بهجتها . لقد باعت أثاثها الفاخر ونفائس صورها ورياشها ، وعمدت إلى البساطة في زينتها وعيشتها ، وانتقلت إلى شقة أرضية لطيفة الأثاث مرتبة مهندمة ، ولكنها ظلت فيما سوى ذلك على حالتها تتلقى أصدقاءها بما هو معهود من إشراق طلعتها ومخايل عزتها وطرب غنائها ورنه ضحكاتها وفيض طبيعتها .

وكان أول تفكير بودلير فيها واشتغاله بها ، على نحو من الإمعان والحرارة أكثر مما يكون بين الأصدقاء ، في آخر عام ١٨٥٢ ، أي بعد تسعة شهور من انقطاعه عن عشيقته جان ديفال وعلى أثر خيبته في حب ماري . فقد استولى عليه شعور أليم بالانفراد والوحشة . وزاد حنينه إلى الأنيس ، إلى إنسانة تفهمه ، إلى من يفيض عليها أفوايق هذا العطف الذي تكتظ به جوانحه ، ويصرف إليها هذه القوة العاطفية التي لم يقدرها من اتصل بهن حتى جان ديفال . وفي هذه الحالة النفسية كان يغشى بودلير في أيام الأحد مجلس مدام سباتيه في شارع فروشوت ، وكان في ذلك الحين ساهماً مربد الوجه . وقد صار لعينيه السوداوين نظرة عميقة شاردة ، وبرز عظم وجنتيه قليلا ، وارتسم على وجهه أخدودان ، ينهيان بفم دقيق تدلت شفته السفلى في استخفاف يتعارض وما في النظرة من جد صارم . وكان عريض الجبهة أجلاح إلا من خصلة متهدلة ، قصير الشعر حليق الوجه . وسحنته في جملتها تبليبل الفكر وتقلق الخاطر .

وكان طويل الصمت . وإذا تكلم فبالمفارقات أو اللدعات الساخرة . وهو على الحالين لا يظهر منه انبساط الحديث القوم وبخاصة حين يهزلون . ومع هذا فإنه كان شديد المواظبة على الحضور . إنه منساق بما يجده من ارتياح في جوار مدام سباتيه . لقد كانت حجرة استقبالها بمناضدها الأنيقة ، ومفارشها البيضاء الناصعة ، وأنيبها الفضية وأزهارها تبدو له جنة السلام ، ومستقر البهجة وبر الأمان ، بعيداً عن فوضى غرفته الموحشة ، وبعيداً عن

مطاردة دائنيه . ثم هو يأنس بما في مدام سباتيه من ذكاء وجمال وطيبة . فكيف به في وقت هو أشد ما يكون شعوراً بالحاجة إلى الأُنس بامرأة تجتمع لها هذه الصفات . وليس يعنينا أن هذه كانت صفات مدام سباتيه حقاً ، ولكن الذي يعنينا أنه انكشف لنا في هذه المناسبة — أكثر مما انكشف في سائر المناسبات — ما في بودلير من الرقة ولطافة النفس والإحساس المذهب . لقد وقر في خلده أنه وجد الخير والجمال ، وجدهما في مدام سباتيه ، فهو مؤمن بأن في الدنيا خيراً وجمالاً . وهو سعيد كل السعادة بذلك الإيمان . وهذا هو في درك الهاوية يتطلع إليها ، مؤملاً في الخلاص على يديها ، مستبشراً متلهلاً متفتح الروح لهذا (الفجر للروحاني) .

« حين يدخل الفجر الأبيض الزاهر ، في قلب الفاجر .
 « ومعه المثل الأعلى المنشود بونخزه الشديد الأليم
 « يفعل سره الخفي في قلب الفاجر فعلمه انقاهر
 « فإذا في البهيم الهامد يستيقظ ملك كريم

* * *

« وإذا السموات العلية الروحانية
 « ينفتح فلكها المكور البعيد المنال
 « غائراً سحيقاً ، له ما للهاوية من جاذبية
 « للصرع الذي لا يزال متأماً حاملاً بالكمال

* * *

« كذلك — يا ربتي الحبيبة ، يا ذات الطهر والصفاء —

« على البقايا الداخنة من ليالى العريضة الحرقاء
 « تهفو أمام عيني الشاخصة في الفضاء
 « ذكراك وضاعة زاهرة ساحرة بغير انتهاء

* * *

« في وجه الشمس تصبح نيران الشموع كابية كامدة
 « كذلك ذكراك على الدوام ظافرة غالبة
 « أيتها الروح المنيرة ! أيتها الشمس الخالدة ! »

ولكن الشاعر لم يجرؤ على إظهار حبه ، والتغنى بشعره إلى موحيته ، بل كان يبعث بهذه المقطوعات الواحدة بعد الأخرى غفلاً من اسمه ، متعمداً في نسخها تزوير خطه ، راجياً فوق ذلك ألا يطلع عليها سواها . ولو كان الناظم لهذا الغزل غير بودلير لأنشده « للرئيسة » في مجلسها على الملأ من أهل الأدب والفن . فهو أخرى وأليق من الكثير من النوادر والنكات التي كان يتفكه بها زميله « تيوفيل جوتييه » في المجالس ، فيضحك منها القوم أو يتضحكون وهي في جملتهم . ولكنه كان مفرط الإحساس ، شديد الحياء ، يكاد يكون ذلك عنده وسواساً ومرضاً . فكيف به وقد غالى بها ، وأعلى قدرها من فرط حبه لها ؟ إنه لا شك يخالجه منها ما يخالج العابد من الهبة لمعبوده . بل إن هنالك ما هو أدهى من ذلك . ونعني به كبرياءه . فأخشى ما يخشاه قد لا يكون غضبها ، وإنما هو ضحكها . إن مجرد الفكر في ذلك يلقي في روعه الاضطراب والوهل ، ويكاد يبغيضه فيما هي عليه من الطرب والجلل . فتراه يذكر انشراحها وطيبتها وعافيتها وجمالها ، ويتساءل ألم تعرف قط أضدادها المخالفة ، ولم تدخل عليها أحوالها المعاكسة . وكأنما يتمنى لها ذلك لتفتح عينها على حاله ، ويضمن عطفها

على آلامه وأوجاله :

« أيها الملاك الطروب ، هل عرفت الألم
 « والهوان والسأم ، والنحيب والندم
 « والهواجس المبهمة في الليالي المظلمة
 « أيها الملاك الطروب ، هل عرفت الألم ؟

* * *

« أيها الملاك الطيب ، هل عرفت البغضاء
 « ودموع الغل الكظيم ، وتربص الثأر في الليل البهيم
 « وقد صرح الشر ، وبات فينا صاحب النهى والأمر
 « أيها الملاك الطيب ، هل عرفت البغضاء ؟

* * *

« أيها الملاك الموفور العافية ، هل عرفت السقم
 « وأسوار الملاجى العالية الشاحبة البياض
 « يدب بينها المرضى يجرون القدم
 « أيها الملاك الموفور العافية ، هل عرفت السقم ؟

* * *

« أيها الملاك الموفور الجمال ، هل عرفت الذبول
 « وخشية المشيب ورهبة الأفول
 « وذلة الرضى بالوفاء دون الهوى .
 « أيها الملاك الموفور الجمال ، هل عرفت الذبول ؟

* * *

« أيها الملاك السابح في السعادة والسرور والنور
 « في جسمك الساحر براء للذئف المسحور
 « ولكني يا ملاكي لا أسألك إلا الدعاء المبرور
 « أيها الملاك السابح في السعادة والنور » .

على أن بودلير القديم لم يمت ، وما زالت طبيعته الأخرى تنازعه .
 إن العشرين سنة - أو نحو ذلك - من حياة العشق الأولى مع جان ديفال
 تركت أثرها في طبيعته ، وهيئات أن يمحى ... فإذا به بعد حين تبدر
 منه في ترنماته الروحية للربة الحديدية نبرات متفرقة فيها بعض الصدى البعيد
 لأشعاره في جان ، ثم لم يلبث بعدها أن أطل شيطانها في قصيدة من أروع
 قصائده التي يتوجه بها إلى الربة الحديدية « إلى المرحمة المفرطة المرح » :

« طلبعتك وحركتك وسماؤك
 « تحكي في ناظري أجمل الرياض ،
 « وضحكك تشيع في محياك الوضاء
 « مثل النسيم العليل في صحو السماء

* * *

« وتمرين بالحزين العابر
 « فتبهره منك روعة العافية ...
 « تتفجر كالنور الدافق
 « من ساعد ومن عاتق

* * *

« والألوان الصبخة المجلجلة

« التي تنثرينها في زينتك
 « تلتقي في روع ناظمي الأشجار
 « صورة مرقص من مراقص الأزهار

* * *

« هذه الأثواب الموشاة المتبرجة
 « عنوان على نفسك المتفنتة
 « أيتها المفتونة التي أنا بها مفتون
 « إني أبغضك بقدر ما أهواك

* * *

وأذكر يوماً في بستان
 « درجت أجرر جسمي الخائر
 « فأحسست في الشمس ضحكة ساخر
 « تمزق بالنور صدرى الخاسر

* * *

« وأحسست أن الربيع النضير
 « فيه الهوان لقلبي الكسير
 « فأنزلت بزهرة من الزهرات نقي
 « جزاء للطبيعة الوقاح على إهانتى

* * *

« كذلك يا شدة ما أشتهى

« في ليلة من الليالات وقد أذنت ساعة الذات
 « أن أدب كالص الحسيس
 « إلى ذخائر حسنات النفيس

* * *

« فأنتقم من جسدك الطروب
 « أخذش صدرك الغفور
 « وأطعن جنبك المدعور
 « طعنة نهجلاء جوفاء

* * *

« ثم يا للذة الهوجاء ؟
 « حين أهوى على هذه الشفاه الغضة
 « الغريرة الباهرة الحلوة
 « فأذنت فيك سمى ، يا شقيقة نفسى ».

شنشنة نعرفها في بودلير القديم ، بنفسه المعقدة ، وتوفز أعصابه ،
 وجنون حسه ، وفساد شهوته ، ووقدة خياله ، وتهانف شيطانه . وشأن بودلير
 في هذا شأن الطبيعة المزدوجة التي يحدثنا عنها عالم النفس الحديث ، والتي
 يعرفها ولا ينسى روعتها من قرعوا للروائي الإنجليزي ستيفنسون قصة «الدكتور
 جيكل ومستر هايد» .

وأما ما كان من أمر مدام سباتيه ، فإنه لا يمكن أن تكون قد
 ضلت طويلا معرفة ناظم هذه القصائد الرائعة فيها من بين زائريها . على
 أنه حين صدرت مجموعة ديوانه وفيها هذه المنظومات شجعه اشتهار أمره ،
 وما ثار من ضجة حول شعره ، فأهدى إليها نسخة منه ، غني بتجليدها

لها خاصة ، ومعها رقعة كشف القناع فيها عن وجهه ، وضممتها شعائر حبه .
وفي هذه المرة ترامت المعبودة بين ذراعى العابد ، وهي تقول جوابها له :
« إني أسعد النساء . وما رأيتك يقط أبدع وأروع في عيني منك الآن
يا صديقي الأجل . فافعل بي ما أنت فاعل . إني لك بقلبي وعقلي وجوارحي ... »
ولكن هيهات ، هيهات أن يتحقق الوصال . لقد قام بينه وبينها مثل
عقلة السحر من خيال جان ديفال .

وأدركت المرأة الذكية عقده النفسية . فافترقا على غير حرازة . وقد
ذكرها بعد ذكر من يحبها على البعد ويرجو لقاءها بالروح في ملكوت
الخلد :

« إلى أحب النساء ، إلى أجمل النساء
« إلى من ملأت قلبي بالضياء
« إلى الملاك ، إلى المعبود الخالد
« تحيتي في الخلد

* * *

« إلى التي أشاعت في حياتي
« روحاً كالهواء المنعش
« إلى التي في كيانى المحبول من الفناء
« أفرغت طعم البقاء

* * *

« إلى نافجة الطيب الذكى
« تنضوع في معهد الهوى العذرى

« إلى المحمرة متروكة يتصاعد منها البخور
 « خفية تحت جناح الديجور

* * *

« هيهات أيها الحب النزيه الصريح
 « أوفيك حقلك من الوصف الصحيح
 « يا حبة المسك الخافية الثاوية
 « في قرارة نفسي الباقية

* * *

« إلى أحب النساء ، إلى أنجمل النساء
 « إلى التي كانت بهجتي وصحتي
 « إلى الملاك ، إلى المعبود الخالد
 « تحيتي في الخلود » .

ولقد بقيت مدام سباتيه تكن له في نفسها أطيب المودة . وكانت على
 عيادته في مرض موته أحرص النساء بعد أمه .

قاتل نفسه

« أنا الجرح والسكين
« أنا الطاعن والطعين » .

لم يكن لبودلير بعد أن فقد فردوسه إلى جانب فينوس البيضاء ، إلا أن يعود العودة الأخيرة إلى مباءته المألوفة ، إلى الحليمة الساقطة جان ديفال . وما كان له بعد هذه المحاولات من سبيل للحب غير سبيل جان ديفال ، وبخاصة اليوم وهو مريض نضو سقام . إنه لا يستطيع الحياة وحده ، فأعصابه مختلة مشوشة ، وقد كانت تساوره بالليل المخاوف والأوهام ، وهذه المرأة ، جان ديفال رفيق على كل حال . ومع ذلك ، فإن العلاقة بينهما كانت لا تلبث أن تبرم حتى تنقض ، ثم تبرم ثانية لتعود للانتقاض ، فالبون شاسع بين بودلير الشاعر المبدع ، والناثر البليغ ، والناقد الذي عنده مقطع الحق ، ومشعب السداد في الأدب والتصوير والموسيقى — وصاحب الفضل في ذلك التنبيه الموفق ، المديد مرمى النظر ، البعيد مطرح الفكر إلى عبقرية « إدجار بو » (Poe) الشاعر الأمريكي ، ومانيه (Manet) الرسام الفرنسي ، وفاجنر (Wagner) الموسيقار الألماني ، نقول إن البون شاسع بين هذا الرجل ، وبين هذه المرأة البهيمية الشريرة القبيحة السكير . ولقد اتخذ بودلير لهما عشا في أحد الشوارع القديمة القدرة ، فكان يئس العش من دوام الشجار ، فتركها إلى الفندق صادق العزم على العمل ، وتحامل على نفسه ، ولكن خذلته قوته ، لقد حانت ساعة التفكير ، فهو معذب الجسم أرق ، يستعين على الأرق بالمغيبات ، فيزيد على أوجاعه الغثيان والقيء ، وهو يشكو وجع الرأس ، وعسر التنفس ، وقد أصابه احتقان مخي ، ثم لم يلبث أن أبل منه .

وأخيراً سافر بودلير إلى بلجيكا لعله يكون أسعد حظاً وأوسع رزقاً ، ولكنه صدم في أمله أفظع صدمة . وفيما هو يزور إحدى الكنائس الأثرية في « نامور » مع بعض المشتغين بالأدب والنشر ، خر صريعاً في صحنها ، وأقاموه فإذا هو مفلوج في الشقة اليسرى ، وقد اعتقل لسانه ، فحملوه إلى مستشفى في بروكسل ، وأرسلوا إلى أمه في باريس (وهي أرملة للمرة الثانية) فجاءت المسكينة على عجل . وطالت الحال بالشاعر في المستشفى دون أدنى أمل . فنقلوه إلى باريس في دار من دور المرضى ، ولكن المنية — وأسفاه — لم تعاجله ، وبقى أشهراً ، وكأنما بقي للعبوة ، يجر نصفه المفلوج جراً ، وهو صاحى الذهن يدرك كل ما حوله ، ولكنه إذا أراد العبارة لم يطاوعه النطق . لقد أصيب الشاعر المنطيق في موضع قوته وإعجازه .

وفي آخر يوم من أغسطس عام ١٨٦٧ أدركت بودلير رحمة الله فقضى نحبه . وهو في السادسة والأربعين من عمره :

« يا موت ! ... أيها الملاح المحنك ، الموكل بسفر الأرواح ،
 « آن الأوان . فارفع المراسي ، وهيئ لنا الرحيل
 « مللنا المقام هنا — يا موت ! ... فمعجل الرواح
 « وإن يكن — أيها الملاح ! — قد ادلهم
 « أمامك البحر والسماء
 « فإن نفوسنا التي ألمت بها — يشع منها الضياء » .

الخلاصة

ترأى للقارئ لا محالة فما عرضناه من سيرة الشاعر ، أن حياته كانت في واقع الأمر مأساة . ويزيد في وقع المأساة أن القدر لم يمهله ، فقد بدأت مأساته منذ أوليات صباه :

« لم تكن أيام صباهي إلا الزوبعة انقائمة
« تتخلل ظلامها بعض الدراري الباسمة
« وقد أنزلت الصواعق والأمطار بحديقتي أعظم الضرر
« فلم يبق منها إلا اليسير من يانع الثمر »

لقد عرف بودلير - وهو طفل لم يعد الثامنة من عمره - غيرة هملت المتفجعة العارمة لزواج أمه . فطبعته الغيرة بنزعة للشورة امتدت بعدها إلى سائر حياته . وكان من جراء تفتح عينيه على ما يسميه خيانة أمه ، وخيبة ظنه من كانت مثله الأعلى ، أن مضى كالناقم يحطم مثله العليا في الحياة . فهو من قبل بلوغ العشرين خارج "على الدين ، مستهتر" بالحدود ، مجاهر بالعصيان ، ساخر بالسماوات والأرضين . ولكن المتأمل في حقيقة موقفه ولحن كلامه يرى فيه تحدى اليأس وتجديف التأثير ، ويراه أبعد ما يكون عن تلك البرودة المعودة في منطق الكافرين . وذلك الجفاف في تفلسف المعطلة المنكرين . وإيا هو جدير بالاعتبار أن الشاعر نفسه حين جمع هذه الأشعار جمعاً ، تحت عنوان « الثورة » . وحسبنا أن نورد في هذا المعنى مقطوعتين من قصيدة له بعنوان « المتمرد » :

« انقضض الملوك المنتقم من السموات العلى كأنهم انكاسر

« وأمسك بجميع يده القوية شعر الماحد الكافر
 « وقال وهو يهزه هزا عنيفاً : (الزم الشرع ،
 « أنا ملاكك الساهر على خيرك — كذا أريد) »

* * *

« وأنحى بقوة الجبارة عليه — والعقاب بقدر الحب —
 « منكلاً أشد النكال بهذا المتمرّد على طاعة الرب .
 « والمتمرّد المنكل به لا يفتأ يلتوى ويصيح : (لا أريد) »
 كذلك كان بودلير في هذا الطور منغمساً في شهوات الجسد إلى أحط
 الدرك . ولكن ينبغي ألا يفوتنا أن الشهوة هنا أيضاً كان يخالطها — فيلهبها —
 ما في جحيم نفسه الثائرة من الرغبة في الخط من المرأة ، والتزول بها إلى
 مراغة الحمأة . فيعمد إلى التغنى بالساقطات ، وما في جزيرة ليسبوس من
 موبقات ، وسائر ما تحسنه الفاجرة من أفانين الغوايات . وفي هذه الفترة
 من جنون الحس نظم قصائده الرائعة في جان ديفال « ربة العشق السوداء »
 كما يقول ، وهي لا شك المعنية بقوله :

« إني لأستخلص من كل شيء لبابه العجب
 « أعطيتني الوحل فصغت منه الذهب »

ومنذ الثالثة والعشرين ، أصبحت موارد بودلير محدودة ضيقة بعد
 المحبوبة والسعة . فعرف فوق ما عرف أزمات الضنك والفاقة ، وأعباء
 الديون وملاحقة الغرماء الدائنين ، وضرورة الكد ، وهوان التكسب بثمار
 العقل وعصارة القلب . فهو ينظم في معنى شقاء العيش وثقل تكاليفه ،
 وحال الذين لم تمنّ عليهم الحياة ، والطريدين من رحمة الله ، والمصدودين
 عن سبيل الخير ، والخائبيين فيما قصدوا إليه من أمر . ومن عمة أطلق على

الكثير من أشعار هذه الفترة لفظاً مستحدثاً عن الإنجليزية بمعنى (السوء) Spleen وهي تشترك جميعاً في لون الأسى ورنّة الشجاء وطعم المرارة. ولكن الذي يلفتنا ويؤلنا أكثر من هذا جميعه ما يرين عليه فيها من شعور قاتل بالسأم حتى لا تكاد تخلو قصيدة من لفظه مردداً أكثر من مرة :

« شرّ ما يجنيه على المرء زوال التطلع وانقضاء العجب :

« الملل يستفيض ويستفيض بغير حد استفاضة الأزل »

وفي الثلاثين نشط الشاعر من الهمود الذي ران عليه . وكان الحافز على هذا الابتعاث والنشاط تولعه وقتئذ بمؤلفات الشاعر الأمريكي « إدجار بو » واهتمامه بنقله والترجمة لسيرته وجهاد حياته . ثم زاد على ذلك مطالعته للفيلسوف السويدي سويدنبورج وتأثره بروحه التصوفية . كما اتفق له في هذا الطور غرامه العاطفي بمدام سباتيه (ربة الحب البيضاء) . وهنا أوفى على التمام والنضج حتى بلغ أوج إنتاجه الأدبي . فهو الثابت اليقين في مواهبه ، البصير بأغراضه ، المستكمل لأدواته . وقد أرصد للأشياء حسه ، وأيقظ إلى مضامين رموزها حدسه ، وفتح لتجاوبها نفسه :

« الطبيعة معبد تكتنفه أسرار الدين
 « تصدر عن أعمدته الحية في الحين بعد الحين
 « أصوات كالزمزمة بكلمات مختلطة مبهمه
 « ويجوس منه الإنسان في غابات من الرموز
 « تراعيه ، وتحديق فيه بنظرات أليفة

* * *

« وكما تختلط الأصعداء المديدة في الآفاق البعيدة

« في وحدة غامضة عميقة .
 « لها رحابة النهار وشمول الظلام
 « كذلك في معبد الطبيعة
 « تتجاوب العطور والألوان والأنغام

* * *

« وهن العطور ما هو كأجسام الأطفال نداوة
 « وكالأنغام عذوبة ، والحقول الخضر نضارة
 « كما أن منها الداعر المجادر ، القوى الرائحة انفاغله القاهر
 « كالعنبر والمسلك ، وميعة الجاوى ، وعود الهند
 « يتضوع ريحها ويمتد
 « كاللأنهاى بغير حد
 « فيطرب النفس ويسكر الحواس » .

* * *

وأما في الطور الأخير من حياته فقد غلب عليه الوجوم والندم وهو
 ينظر إلى كر الزمن ، ويستعرض السنين الطويلة التى أضاعها من حياته
 ويفكر فى قصر المدة الباقية له قبل مماته .

« الفن طويل الشقة ، والزمن قصير المدة » .

وقد أخذ الهول ، وهو يعاين عند قدميه هوة الفناء فاغرة فاها ضاحكة
 منه ساخرة . ولكن إيمانه بالآلم كان يقوى . لقد شقى منذ طفولته ، وشقى حتى
 فى لذته ، وما كان الآلم ليذهب سدى . لقد كان الآلم خصباً لعبقريته فى

حياته ، وهو لا شك الخلاص له في مماته :

تبارك يا ربّ سوطُ النّفسِ

تبارك يا أبناهُ الأُمّ

فلم تلك نفسٍ بين يديك

بالعبودية من دوانٍ لديك

تعاليت فيما اقتضت حكمته

وقُدّست فيما ارتضت رحمتك

الخلاصة

مكانة بودلير وأثره في الأدب

حين ظهر « ديوان أزاهير الشر » قال كبير شعراء العصر وقتئذ « فيكتور هيجو » عن صاحبه إنه أحدث في الشعر انتفاضة جديدة . ولا نبالغ إذا قلنا : إنه لم تنقض على وفاة بودلير عشر سنوات حتى أخذ يتأثر الشعر الفرنسي كله تأثيراً مباشراً أو غير مباشر بهذه الانتفاضة التي سرت رجفتها إلى نخاع العديد من الأجيال مع اختلاف في مدى الاعتراف بذلك التأثير والتسليم به .

والسبب في أن تأثير بودلير لم يظهر حق ظهوره إلا بعد وفاته ، يرجع إلى ما كان ينقصه من الجرأة على فرض نفسه على من حوله من أبناء عصره ، وإلى طبيعة رسالته الفنية التي كانت من العمق والصدق غامضة متناقضة غير محدودة ، ومن ثمة لم يتح لشاعرونا في وسطه أن يحشد تلك القوة المتولدة عن الإعجاب والفهم ، ويخلق منها ذلك الجو الجماعي الذي يكفل للفنان في حياته عصبية من الأنصار والمريدين المتأثرين . وأيا كانت الحال ، فإن تأثير بودلير بعد وفاته كان شديداً ، كما كان مطرد الزيادة ، ويلاحظ أن تأثير بودلير يتولد في النفوس خفياً أول الأمر ، وقد يظل خفياً ، وعلى غير وعي من المتأثرين به بحكم كونهم من متوسطي الذكاء أو بحكم شهرتهم التي تحول دون اعترافهم بفضل بودلير عليهم ولعل أول من سيطر عليهم بودلير حق السيطرة وظهرت آثار تأثيره فيهم ظهورها المبين هو الشاعر المشهور « بول فرلين Paul Verlaine » . ومن عجائب الحياة أن هذا بعينه ما جعله يقتصد في الكلام عمن كان له القدوة والإمام فلم يأت في وصفه — حين وصفه — إلا بالعبارات المبتدلة على كل لسان : « كان بودلير كاتباً

مبرزاً وشاعراً كبيراً ، ولا حاجة بنا إلى مزيد من القول لتوكيد ذلك . وأن
النصاعة العجيبة في أسلوبه وشعره البراق المتين السلس ، وخياله القوى النافذ
التأثير ، وفوق هذا جميعه تلك الحساسية المرهفة دائماً العميقة في أغلب
الأحيان القاسية في بعض الأحيان ، كل هذه الصفات تكفل لشارل
بودلير مكانه بين صفوة مفاخر الأدب في زماننا ، مع استثناء بلزاك
Balzac وفيكتور هيجو بطبيعة الحال .

وعلى العكس من ذلك موقف الفتي الشاعر « آرثر رامبو » Arthur
Rimbaud صديق فرلين ، فقد كان أول من حيا بودلير باللهجة التي تناسب
عظمة شأنه وحقيقة مقدرته ، فهو رب من الأرباب وأول أهل البصيرة
والكشف ، وملك الشعراء .

ونذكر ممن تأثروا بشاعرنا قطباً من أقطاب الرمزية قبل هذين وهو :
إسطفان مالارمي "Stéphane Mallarmé" الذي يذكر قراءه —
ولا ريب — بهذه المناسبة قصيدته « قبر شارل بودلير » .

بيد أن الرمزية الغامضة عند مالارمي قد فتحت للكثيرين من الشعراء
بعده الطريق على مصراعيه لاتخاذ الرمزية وسيلة سهلة ميسورة للتمويه على
من يسهل التمويه عليهم من القراء باصطناع لهجة مبهمه يعتمد الشاعر
فيها على تأثير كل لفظ في ذاته والجمع بين هذه الألفاظ في تراكيب تخلب
القارئ وتروعه دون أن يحصل ما وراءها .

ولقد امتد تأثير شاعرنا ، بودلير ، رائد الرمزية من حيث المضامين
المعنوية إلى الكثيرين بعد هؤلاء سواء جاء تأثيره مباشراً أو عن طريق هؤلاء
أنفسهم . ولقد نوه بهذا التأثير أكثر من ناقد شهير ، حتى من بين من كان
يغلب عليهم الفتور من ناحيته ، ومنهم « جيل ليمتر Jules Lemaitre » الذي لم
يسعه مع ذلك إلا أن يقول : « إن بودلير يتوافر لديه بقدر كبير ما ينقص غيره
من يكبرونه ويتقدمون عليه ، ونعني به ذلك الإحساس وذلك الاهتمام ،

وذلك الفرع من السر الغامض الذى يكتنفنا

بيد أنه ليس هنالك أكثر دلالة على مدى تأثير « بودلير » فى الزمن الأخير من كلمة للناقد الشهير « برونثير » Brunctière .. » أرسلها فى لهجة حانقة كاللعنة الساخطة المحرقة . ونحن إذ نشبهنا هنا ، لا نشبهنا من قبيل الموافقة ، بل باعتبارها — كما أسلفنا القول — أقوى الشواهد الناطقة القاطعة على ما بلغه شاعرنا من استفحال الشأن وغلبة السلطان فى الأزمنة الحديثة .

« إن بودلير أحد الأصنام المعبودة فى هذا الزمن وهو أشبه ما يكون بصنم شرقى فظيع شائه الصورة وقد زاد فى شناعته الطبيعية ما أضفى عليه من الأصباغ الغريبة . ومعبد هذا الصنم المعبود من أكثر المعابد زحاما » .

أما اليوم فالفكرة السائدة عند النقاد وعند القراء على السواء ، هى أنه — من غير أدنى مبالغة — يمكن القول فى صراحة وثقة ، أن الشعر الفرنسى فى جملته يمكن تقسيمه إلى قسمين : ما قبل بودلير ، وما بعد بودلير . وهذا غاية ما يمكن أن يقال للتعبير عما أصبح لشاعرنا من المكانة والتأثير الذى امتد إلى الأدب العالمى عبر العصور .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

دارالمعارف بمطـر

تقدم للناشئة والشباب

مجموعة (بطولات عربية)

مجموعة عربية تعرض على الناشئة والشباب صوراً رائعة من
الوطنية والفداء في سبيل الوطن والكفاح لنصرة العروبة والقومية
العربية . وهي تعرف قارئها بصفحات ناصعة من تاريخنا المجيد
الحاضر وتحثهم على اتخاذ أصحاب هذه البطولات مثلاً لهم
وقدوة في خدمة بلادهم والتضحية في سبيل الوطن العربي الكبير
وعزته وكرامته .

● صدر منها :

٤ - جلال الدين دسوقي

٥ - سليمان الحلبي

٦ - جواد علي

١ - أحمد عبد العزيز

٢ - جول جمال

٣ - أحمد عصمت

ثمان النسخة من كل كتاب ١٠ قروش

خذالمعارف من دارالمعارف

Bibliotheca Alexandrina



0392654